أجاثا كريستي

ذات الشعر الذهبي

دار النجمة للنشر والتوزيع

ذات الشَّعر الذّهبي
وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

ذات الشَّعر الذّهبي
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

ذات الشعر الذهبي

ضغط بوارو قدميه على الأرض محاولاً تدفئتهما، وتساقطت من شاربيه نقط من ذوبان الجليد. وسمع طرقاً على الباب ظهرت بعده الخادمة. كانت فتاة ريفية تميل إلى السمنة، وأخذت تنظر باستغراب إلى بوارو وكأنها لم تر شخصاً على شاكلته من قبل. ثم سألته قائلة: هل دققت الجرس؟

- نعم، أرجوك أن تشعلي لي ناراً؟

فخرجت وعادت مسرعة تحمل ورقاً وأعواداً من الخشب وضعتها في المدفأة وبدأت تشعلها. وراح بوارو يضغط على قدميه ويفرك يديه ويقربهما من وهج النار.

لقد قطع مسافة ميل ونصف ميل في طريق وعر يكسوه الجليد، واضطر أن يمشي طول هذه المسافة لتعطل سيارته حتى وصل إلى قرية هارتلي دن الواقعة على شاطئ النهر، وهذه القرية المشهورة بجمالها في الصيف يفر منها الإنسان في الشتاء. وروع بوارو عندما أخبره صاحب الفندق أن في إمكانه أن يقدم إليه سيارة أخرى يتم بها رحلته. كيف يخرج على مألوفه ويستأجر سيارة بينما هو يملك سيارة، وسيارة غالية الثمن هو مصمم على العودة بها إلى المدينة؟ وهو لن يعود إلاّ في الصباح حيث يكون الجليد قد ذاب والسيارة تمّ إصلاحها.

مد بوارو قدميه بالقرب من المدفأة وهو يمسك بيده قدحاً متواضعاً يرشف منه سائلاً أسود قيل إنه قهوة، ولكن لهب النار وحرارتها جعلته يشعر كأنه في جنة الخلد حتى نسي الطعام الرديء الذي أكله والقهوة القذرة التي كان يشربها.

وطرقت الخادمة الباب ودخلت وهي تقول: رجل من ورشة الإصلاح يريد مقابلتك يا سيدي.

- دعيه يدخل.

دخل شاب عليه مسحة من الوسامة والبساطة وقال: لقد فحصت العربة وعرفت الخلل الذي بها، وسوف يستغرق إصلاحه نحو ساعة.

- ما هو ذلك الخلل؟

راح الشاب يتكلم عن أشياء فنية لا تهم بوارو كثيراً، وأخذ هذا يهز رأسه كأنه منتبه لما يقوله الشاب بينما هو في الحقيقة غير ملم بكلامه، وأخذت عيناه تضيقان قليلاً ثم قال: لقد فهمت. نعم، فهمت لأن سائق سيارتي أنبأني بكل ما قلت.

فرأى حمرة الخجل تعلو وجه الشاب الذي تناول القبعة بيده في شيء من الاضطراب، وسمعه بوارو يقول: نعم يا سيدي، أنا أعرف.

فأجاب بوارو: ولكنك استحسنت أن تحضر بنفسك

لتخبرني بالمطلوب.

- نعم يا سيدي، لقد فضلت أن أحضر نفسي.

فقال بوارو: أشكر لك عنايتك الزائدة.

كانت هذه الكلمات تحمل معنى الإذن للشاب بالانصراف، ولكنه لبث واقفاً في مكانه. أمسك بقبعته وتنحنح، ثم قال بنبرات يظهر فيها الارتباك: أستميحك عذراً يا سيدي، ألست أنت السيد بوارو، الشرطي السري الخاص المعروف؟

- نعم، أنا بوارو.

احمرّ وجه الشاب وقال: قرأت عنك مرة في الجرائد.

- نعم.

فتغير وجه الشاب، وانتبه بوارو فقال له: نعم، ولكن لماذا تسألني؟

- أخشى أن تظن أن اضطرابي إنما هو نتيجة خوف، ولكن الحقيقة أن حضورك الفجائي إلى هنا وما سبقه من ذيوع لشهرتك في تحقيق الجنايات وقراءاتي شيئاً عنها في الجرائد، كل هذا جعلني أرغب في سؤالك أمراً. هل ثمة مانع؟

هزّ بوارو رأسه وقال: هل تريدني أن أساعدك في شيء؟

فقال الشاب متردداً: نعم، نعم. سيدة شابة أرجو البحث عنها؟

- البحث عنها؟! هل اختفت؟

- نعم يا سيدي، لقد اختفت.

اعتدل بوارو على كرسيه وقال بحدة: يمكنني أن أساعدك، ولكني أفضل أن تذهب إلى رجال الشرطة لأن أساليبهم أفضل.

- لا يمكنني أن أفعل ذلك يا سيدي لأن المسألة لها طابع خاص.

حملق فيه بوارو وأشار له بالجلوس وقال: حسناً، ما اسمك إذن؟

- تيد ليمسون يا سيدي.

- اجلس يا تيد وأخبرني بكل شيء.

شكره الشاب وجلس على حافة المقعد، فقال له بوارو بهدوء: أخبرني.

تنهد الشاب بعمق وقال: لم أرها غير مرة واحدة، ولم أعرف اسمها ولا حقيقتها.

فقال بوارو: اسرد عليّ القصة من أولها. لا تتعجل، أخبرني كل ما حدث لك.

- حسناً يا سيدي، لعلك تعرف نادي جرسلون الواقع

على شاطئ النهر بالقرب من القنطرة؟

- لا أعرف شيئاً على الإطلاق.

- يملك هذا النادي السير جورد سندرفيلد الذي يقضي فيه عطلة الأسبوع في الصيف مع جمهرة من الممثلات وبعض أصدقائه للهو، وقد استدعيت في شهر يونيو الماضي لإصلاح خلل بالراديو.

هزّ بوارو رأسه، واستمر الشاب يقول: ذهبت في الحال، وكان صاحب القصر على شاطئ البحر مع ضيوفه والطباخ قد خرج لبعض شؤونه، فلم أجد سوى مساعده يعد المائدة للغداء وإحدى الوصيفات. وأخذتني الوصيفة إلى مكان الجهاز وجلست بجواري أثناء قيامي بإصلاحه، وتحدثنا بالطبع سوياً. كان اسمها فاليتا حسب قولها، وقالت إنها وصيفة لراقصة روسية كانت مع الضيوف حينذاك.

- ما هي جنسيتها؟ هل كانت إنجليزية؟

- لا يا سيدي، بل أظن أنها فرنسية. ففي نبرات صوتها عذوبة وظرف وهي تجيد الإنجليزية. وتوطدت بيننا الصداقة فدعوتها لتذهب معي إلى السينما، ولكنها اعتذرت، إذ ربما تحتاج إليها سيدتها. ثم عادت فقبلت دعوتي بعد أن حددت الموعد المناسب لها. وكانت نزهة جميلة على شاطئ النهر.

ثم صمت الشاب قليلاً وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة، وغامت في عينيه لمحة من الذكريات، فقال بوارو

بهدوء: هل كانت جميلة؟

- لم أرَ في حياتي شيئاً أحب منها إلى قلبي. لن أنسى شعرها الذهبي وهو يتماوج مع النسيم كأنه أجنحة ذهبية ولا ظرف حديثها وعذوبة صوتها. لقد أسرتني بجمالها وأصبحت لا أريد من هذا الوجود شيئاً سواها.

فهزّ بوارو رأسه، واستمر الشاب يقول: لقد وعدتني بقضاء لحظة ممتعة أخرى عندما تحضر مع سيدتها في المرة القادمة بعد أسبوعين، ولكنها لم تحضر إلى مكاننا الموعود. وانتظرتها طويلاً بغير جدوى، وعندما يئست تجرأت وذهبت إلى النادي وسألت عنها، فقيل لي إن الراقصة الروسية قد حضرت ومعها خادمتها. وبعد قليل جاءتني خادمة أخرى دميمة الخلق بدينة الجسم وقالت إن اسمها ماري، أما الوصيفة السابقة فقد طُردت. وكدت أن أصعق وأسقط في يدي، فماتت الكلمات على شفتي وعدت أدراجي، ولكنني تشجعت وعدت ثانية أسأل ماري عن عنوان نيتا ووعدتها بمكافأة سخية، فعادت بعد قليل تخبرني أنها في شمال لندن، فأرسلت إليها خطاباً رده إليّ مكتب البريد بعد بضعة أيام، ثم أردفته بآخر فكان حظه مثل حظ الأول.

ثم صمت لحظة ونظر إلى بوارو بعينيه الغائرتين وقال: أظن أنه يتبين لك -مما ذكرت- أن مسألتي لا تصلح للعرض على الشرطة، وأنا مستعد أن أدفع لك عشرة جنيهات إذا استطعت الحصول على فتاتي.

قال بوارو: لا ضرورة لأن نتناول الناحية المالية الآن، ولكني أريد أن أسألك سؤالاً واحداً: هل هذه الفتاة المدعوة نيتا تعرف اسمك وعملك؟

- نعم يا سيدي.

- هل في إمكانها الاتصال بك إذا أرادت؟

- نعم.

- هل تظن أنها ربما...

فقاطعه تيد قائلاً: أظنك تعني يا سيدي أنها لا تحبني كما أحببتها؟ ربما. فقد فكرت في هذا طويلاً، وأنا واثق أنها كانت تميل إليّ. لا بد أن يكون هناك شيء شغلها، فقد كانت تعيش في بيئة سيئة ولعلها تورطت في بعض المتاعب، هل تفهم ما أعني؟

- لعلك تريد أن تقول إنها ستضع طفلاً عما قريب. هل هو منك؟

- لا يا سيدي، فلم تكن بيننا علاقة آثمة.

نظر إليه بوارو طويلاً وقال: إذا كان ما تظنه حقيقة، فهل لا تزال راغباً في العثور عليها؟

احمرّ وجه تيد وقال: نعم، أريد أن أتزوجها إذا شاءت. أرجوك يا سيدي أن تجدها لي وحسب.

فابتسم بوارو وقال لنفسه: شعر كأجنحة ذهبية...

سيكون الكشف عن هذه المسألة من المعجزات.

* * *

نظر بوارو في ورقة مكتوب فيها عنوان الآنسة نيتا فاليتا «١٧ وينفرولين، رقم ١٥» وهو لا يدري إذا كان هذا العنوان سيهديه إلى ضالته. ذهب إلى المنزل المذكور ففتحت له الباب امرأة بدينة، فسألها: الآنسة فاليتا؟

- لقد تركت هذه الدار منذ عهد طويل.

فتقدم بوارو خطوة إلى داخل المنزل وقال: هل يمكنك أن تعطيني عنوانها؟

- لا، فهي لم تتركه لنا.

- متى رحلت عن هذه الدار؟

- في الصيف الماضي.

- هل يمكنك أن تخبريني بالتحديد؟

وهنا سُمع رنين نقود في يد بوارو، فسال لعاب المرأة واختفى عبوسها ثم قالت: أؤكد لك يا سيدي أنني أريد مساعدتك. ربما كان ذلك في شهر أغسطس. أعتقد أنه قبل هذا التاريخ، نعم، في شهر يوليو، فقد رحلت مسرعة في الأسبوع الأول من يوليو، رحلت إلى إيطاليا على ما أظن.

- إذن هي إيطالية؟

- نعم يا سيدي.

- وكانت في وقت ما وصيفة لراقصة روسية؟

- هذا صحيح. إنها مدام ساموشنيكا، وكانت ترقص في ملهى تيسبيان، وقد غزت قلوب رواد الملهى.

فقال بوارو: هل تعرفين لماذا تركتها الآنسة فاليتا؟

فترددت المرأة قليلاً ثم قالت: لا أعرف، لعلها قد طردت. ربما حدث بينها وبين سيدتها شيء ما لم تفصح فاليتا عنه. ولكنها كانت شديدة الغضب، ولعلها لم تدع الأمور تمضي بسلام، فهي بطبيعتها الإيطالية الحادة وعينيها السوداوين لا تحجم إذا غضبت من أن تطعن خصمها بسكين، ولهذا لم أكن أعارضها عندما تثور.

- هل تجزمين بأنك لا تعرفين عنوانها الحالي؟

ورنت النقود في يده ثانية، فتشجعت وردت: أشعر برغبة في مساعدتك، ولكنها رحلت على جناح السرعة. وهناك...

قال بوارو في نفسه: نعم، هناك.

* * *

كان أمبروز فاندل منهمكاً في عمل التصميمات اللازمة لحفلة الرقص المقبلة عندما التفت إلى بوارو وقال له: ساندرفيلد؟ جورج ساندرفيلد، ذلك الثري المعروف أنه رجل سيء السمعة وله علاقة مع الراقصة كاترينا ساموشنيكا. هل رأيتها؟ إنها فاتنة جداً.

- هل توجد علاقة بين هذه الراقصة وساندرفيلد؟

- نعم، فقد اعتادت أن تقضي معه عطلة الأسبوع في قصره القائم على ضفة النهر حيث يقيم حفلات فخمة.

- هل يمكنك أن تعرفني بالآنسة ساموشينكا؟

- أنا آسف، فقد رحلت إلى باريس فجأة إذ أشيع عنها أنها جاسوسة روسية، ولكنني لم أصدق ذلك لأنها تبغض الشيوعيين وتدعي أنها من الروس البيض وابنة أحد أمرائهم.

* * *

كان السير جورج ساندرفيلد قصير القامة غليظ العنق، وقد قابل بوارو بشيء من الفتور وسأله: ماذا يمكنني أن أفعل لك؟ نحن لم نلتق قبل الآن.

فأجابه بوارو: نعم، نحن لم نلتق فعلاً.

- إذن فماذا تريد؟

- المسألة بسيطة، أريد الحصول على معلومات تافهة جداً.

ضحك السير ساندرفيلد على الرغم منه ورد: أتريد أن أفضي إليك بمعلومات تفيدك في شؤونك المالية؟

- ليست المسألة خاصة بالشؤون المالية، ولكنها متعلقة بامرأة.

- امرأة؟

- أظنك كنت صديقاً للآنسة كاترينا ساموشنيكا؟

ضحك السير ساندرفيلد وقال: نعم، فتاة ساحرة، ولكنها رحلت من لندن مع الأسف.

- لماذا رحلت؟

- لا أدري، ويؤسفني إني لا أستطيع مساعدتك لانقطاع الأسباب بيني وبينها.

فقال بوارو: ولكن أمر الآنسة ساموشنيكا لا يعنيني.

- من تريد إذن؟

- وصيفتها، لعلك تذكرها.

لاحَ عليه الضيق والحرج وأجاب: كيف أذكر ذلك؟ أنا أفهم أنها دائماً تحتفظ بإحدى الوصيفات وكانت عندها وصيفة لا تعرف الصدق أبداً.

فقال بوارو: يلوح لي أنك تعرف عنها الكثير.

- كلا، وإنما هي ذكريات باهتة. فأنا لا أتذكر اسمها، ربما كان ماري أو أي اسم آخر، ولهذا أجدني لا أستطيع مساعدتك في الوصول إليها.

قال بوارو بهدوء: لقد حصلت على اسم الوصيفة من ملهى تيسبيان، وهو ماري هيلين، غير أنني أتحدث عن

وصيفة مدام ساموشنيكا السابقة، وهي نيتا فاليتا.

حملق السير ساندرفيلد وقال: لا أذكرها مطلقاً، ولكن ماري هي الوصيفة التي أذكرها، دكناء اللون عمشاء العينين.

فقال بوارو: الفتاة التي أعنيها كانت في قصرك المسمى جرسلون في يونيو الماضي.

- حسناً، كل ما أستطيع أن أذكره لك هو أنني لا أتذكر هذه الوصيفة، ولا تصدق أنها كانت تصحب معها وصيفة. لعلك مخطئ يا عزيزي.

فهزّ بوارو رأسه لأنه يظن أنه لم يكن مخطئاً.

* * *

ألقت ماري هيلين على بوارو نظرة هادئة، ثم كر بصرها إليه بلمحة سريعة فقالت: أذكر تماماً أنني اشتغلت عند مدام ساموشنيكا في الأسبوع الأخير من شهر يونيو لأن وصيفتها السابقة كانت قد رحلت فجأة.

- ألم تسمعي عن سبب رحيلها الفجائي؟

- كل ما أعرفه أنها رحلت فجأة. ربما كان ذلك بسبب المرض أو أي سبب آخر لا أعلمه، لأن السيدة لم تذكر عنها شيئاً.

- هل كنت تستريحين لخدمة مدام ساموشنيكا؟

هزت الفتاة كتفيها وأجابت: لقد كانت غريبة الأطوار، تبكي وتضحك في آن، ثم تبتهج وتبتئس في آن آخر. لا يمكن معرفة طباعها. إنها كمعظم الراقصات... هكذا خُلقن.

سألها بوارو: وما رأيك في السير جورج ساندرفيلد؟

فغامت في عينيها سحابة حزن وأسى وقالت: لعلك تريد أن تعرف شيئاً عنه؟ يمكنني أن أخبرك عنه أموراً غريبة.

فقاطعها بوارو قائلاً: ليس هذا ضرورياً.

فنظرت إليه فاغرة الفم يتطاير من عينيها شرر الغضب الممزوج باليأس.

* * *

- إنني أقول عنك دائماً أنك لا تجهل شيئاً يا أليكس بافلوفيتش.

قال بوارو هذه العبارة للكونت بافلوفيتش صاحب مطعم ساموفار بباريس يتملقه ويسترضيه لأن البحث عن ضالته المنشودة كان يتطلب منه سفراً طويلاً ومجهوداً شاقاً مضنياً، ولكن بافلوفيتش يمكن أن يوفر عليه ذلك لأنه يزعم أنه لا تفوته شاردة ولا ورادة في دنيا الفنانات والراقصات.

فهزّ الرجل رأسه وقال: نعم يا صديقي، أنا أعرف كل شيء حقيقة. أنت تسألني أين ذهبت الحسناء ساموشنيكا

الراقصة الفاتنة التي تأسر قلوب الرجال؟ لقد تفوقت على قريناتها في العالم كله ثم اختفت فجأة، وسوف ينساها الناس.

فسأله بوارو: أين هي الآن؟

- في سويسرا. لقد ذهبت إلى هناك للاستشفاء من داء ذات الرئة الذي أضعف جسمها وأذوى عودها حتى أصبحت كالأموات.

سأله بوارو: ألم تعرف وصيفتها المدعوة نيتا فاليتا؟

- فاليتا؟ نعم، أذكر أنني رأيتها ذات مرة حينما كنت أودع ساموشنيكا عند سفرها إلى لندن. إنها إيطالية من بلدة بيزا، أليس كذلك؟

فتمتم بوارو لنفسه: إذن يجب أن أرحل إلى بيزا.

* * *

وقف بوارو في مقبرة كاميو سانتو ساكناً خاشعاً، ففي أحد قبورها المتواضعة ترقد ضالته المنشودة. تلك الفتاة المرحة التي خلبت لب ذلك الشاب الإنجليزي الساذج. هكذا ختمت قصتها الدامية، وستبقى صورتها حية في خيال ذلك الشاب المسكين الذي لم ينعم بقربها سوى لحظة يسيرة في إحدى أمسيات شهر يونيو الماضي!

وهزّ بوارو رأسه في أسف عميق، وتوجه بالحديث

إلى عائلتها الحزينة، فتحدث مع والديها الريفيين اللذين هدهما الحزن وشقيقتها التي أحالها الوجد والأسى هيكلاً آدمياً. قالت أمها الثكلى: لقد خطفها الموت يا سيدي. كانت بيانكا تشكو من الزائدة الدودية، وقد رآها الطبيب أخيراً فصمم على نقلها إلى المستشفى فوراً لإجراء جراحة سريعة لإزالة الزائدة الدودية. وكأنما كان شبح الموت يتربص لها هناك، ففاضت روحها أثناء العملية وهي في غيبوبة من تأثير البنج.

وتمتم بوارو لنفسه: كانت نيتا دائماً ذكية ومن المحزن أن تموت في هذه السن المبكرة، وستكون الرسالة التي سأحملها إلى حبيبها المسكين: "إنها لم تعد لك، فقد ماتت".

* * *

أرخى الظلام سدوله، ولم تعد لزهور الربيع نضرتها وبهجتها. ولكن الربيع (وهو موسم الحياة وعيد الشباب) له في النفوس دفعة وفي الأبدان حركة. فهل يقنع بوارو بهذه النتيجة؟ لا يزال الشك يداعب خياله. فتنهد طويلاً واستقر رأيه -في النهاية- على السفر إلى جبال الألب السويسرية ليحسم هذه الشكوك.

إنه الآن عند نهاية الدنيا، حيث يغطي ركام الجليد كل شيء، وهذه الأكواخ المبعثرة هنا وهناك تحوي هياكل آدمية تصارع الموت. وصل أخيراً إلى كوخ كاترينا

ساموشنيكا، فرآها ممددة في فراشها غائرة العينين والخدين وقد أخرجت من تحت غطائها ذراعين هزيلين. لقد أثار هذا المنظر شجونه... لقد نسي اسمها ولكنه لم ينسَ رقصاتها الفنية الرائعة...

تذكّرَ ميشيل نوفجين في رقصة لصياد يداور طريدته حيناً ويطاردها أحياناً في تلك الغابة السحرية التي أخرجتها عبقرية أمبروز فاندل للمشاهدين كغابة حقيقية على خشبة المسرح، وتذكر الطريدة... ذلك الغزال بقرنيه الذهبيتين وقدميه البرونزيتين يهرب من قناصه في خفة ورشاقة. تذكّر ذلك الغزال حين صرعه القناص فسالت دماؤه، وتذكر ميشيل نوفجين وهو يقف نادماً أمام غزاله الجريح فيأخذه بين يديه كالواله المشدوه...

ونظرت ساموشنيكا وهي في فراشها إلى بوارو ثم قالت: لم أرك قبل الآن، ماذا تريد مني؟

فانحنى بوارو قليلاً وقال: أشكر لك يا سيدتي أولاً فنك الرفيع الذي أتاح لي رؤيتك في إحدى الليالي.

فابتسمت ابتسامة ضعيفة، وقال بوارو: جئت هنا لأبحث عن نيتا، وصيفتك القديمة.

فاتسعت حدقتاها وسألته بدهشة: ماذا تعرف عن نيتا؟

- سأخبرك يا سيدتي.

وروى لها قصة الميكانيكي تيد من أولها إلى آخرها وهي تصغي إليه بانتباه، وحين انتهى قالت: إنها مأساة... مأساة مؤثرة حقاً.

فهزّ بوارو رأسه وقال: نعم، إنها مأساة. ماذا تعلمين عن هذه الفتاة يا سيدتي؟

قالت ساموشنيكا وفي نبراتها حزن ظاهر: كانت عندي وصيفة تدعى جانيتا، مرحة الطبع طيبة القلب، فحدث لها ما يحدث لأمثالها الغريرات فاغتالها الموت وهي صغيرة.

فأثارت هذه العبارة فضوله وسألها: هل ماتت؟

- نعم، ماتت.

وبعد لحظة سألها ثانية: ولكن هناك شيئاً واحداً غاب عليّ فهمه، وهو أنني حينما سألت السير جورج ساندرفيلد عن فتاتك بدا عليه الاضطراب. لماذا؟

فظهرت على وجه الراقصة علامات الامتعاض وقالت: ربما يكون قد اعتقد أنك تعني ماري التي خلفت جانيتا، وقد حاولت تلك الفتاة ابتزازه لأمور لاحظتها عليه، فقد كان من عادتها التجسس على أخبار الناس وقراءة رسائلهم.

وبعد أن صمت بوارو لحظة سألها: إذن فقد كانت فاليتا تحمل اسماً آخر هو جانيتا؟ وهي أيضاً قد ماتت في بيزا على إثر عملية استئصال الزائدة الدودية.

فقالت بعد شيء من التردد: نعم، هذه هي الحقيقة.

فقال بوارو: ولكن أهلها يذكرونها باسم بيانكا.

فهزّت ساموشنيكا كتفيها وأجابت: بيانكا، جانيتا... هذه مسألة لا تهمني، ولكني أظن أنها استظرفت الاسم فأطلقته على نفسها.

- أنت تظنين ذلك، ولكنني أظن أن في المسألة سراً؟

- ما هو؟

انحنى بوارو وقال: الفتاة التي وصفها لي تيد كانت ذات شعر كالأجنحة الذهبية.

ثم دنا من ساموشنيكا ولمس شعرها بيديه وتابع كلامه: أجنحة ذهبية أو قرون من ذهب... أجنحة كتلك التي كنتِ تبدين فيها ملاكاً أو شيطاناً، والقرون كتلك القرون الذهبية، كقرون ذلك الغزال الجريح.

سألت كاترينا بصوت يائس حزين: الغزال الجريح؟!

فردّ بوارو: لا يزال وصف تيد وليمسون يلقي في روعي حيرة بالغة، هذه الحيرة مصدرها أنت... أنت حينما كنت ترقصين بقدميك البرونزيتين في الغابة. هل أخبرك بما يساورني يا آنستي؟ أظنك أمضيت أسبوعاً من غير أن تكون في خدمتك وصيفتك. وفي خلال هذا الأسبوع سافرتِ إلى جرسلون لأن بيانكا فاليتا كانت قد تركتك وعادت إلى إيطاليا، حيث ماتت في مقتبل العمر إثر عملية جراحية.

وكنت لم تحصلي على وصيفة جديدة، وقد شعرت في ذلك اليوم بأعراض المرض فلم ترافقي الضيوف إلى شاطئ النهر بل بقيت وحيدة في المنزل، وسمعت الجرس يرن وذهبت لتنظري مَن القادم. هل أخبرك من كان ذلك القادم؟ كان شاباً في براءة الأطفال وجمال أبطال الأساطير، فانتحلت أمامه لا اسم جانيتا... بل اسم نيتا فاليتا. ثم عشت وإياه بضع ساعات في الفردوس...

وهنا ساد بينهما سكون عميق، أجابت بعده كاترينا بصوت أجش: لعلك على حق، ومصداقاً لقصدك فإن نيتا ستموت أيضاً في مقتبل العمر.

فقال بوارو وهو يضرب المنضدة بيده: كلا، لن تموتي. يجب أن تكافحي من أجل الحياة الجميلة.

فهزت رأسها في يأس وحزن ثم أجابت: ولكن، أي حياة تنتظرني؟

- ليست حياة المسرح، ولكنها حياة أخرى. تعالي معي يا آنستي، وأرجو أن تصدقيني القول: هل كان أبوك أميراً أو دوقاً أو جنرالاً عظيماً؟

فضحكت وأجابت: بل كان سائق شاحنة في لينغراد.

- حسناً، ولماذا لا تكونين زوجة لذلك الميكانيكي القروي وتنجبين منه أطفالاً حساناً؟

فأمسكت كاترينا أنفاسها ثم أجابت: إنها لفكرة خيالية.

فقال بوارو: وأنا أظن أنها ستتحقق.

* * *

ميراث الجنون

راح بوارو يتفرس في زائرته العجيبة، فقد كانت شاحبة اللون متقطعة الأنفاس، وسألته بصوت متهدج: هل تستطيع أن تعينني في مشكلتي الصعبة يا سيد بوارو؟

- أولاً خبّريني: من أنت يا سيدتي؟

- اسمي ديانا مابرلي، وقد لجأت إليك لأنني عجزت عن أن أفعل شيئاً.

- أرجو أن تقصي عليّ مشكلتك من أولها.

- لقد نكث خطيبي بعهده بعد أن لبثنا خطيبين قرابة عام.

- هذه مسألة عادية يا آنستي، إلاّ إذا كان الدافع إلى فسخ الخطبة سبباً خطيراً.

- نعم، فقد فسخ هيو خطبته لأنه يعتقد أنه سيجن، ومن رأيه أن المجانين لا يجب أن يتزوجوا.

- ألا توافقين أنت على ذلك؟

- ولكني لا أعرف ما هو الجنون؟ كل إنسان عنده شيء قليل من الجنون...

- نعم، هذا ما يقال عادة. ولكن هل لاحظت شيئاً

غريباً بدا من خطيبك؟

- لا، لم يظهر عليه أي شذوذ عقلي.

- لماذا يعتقد أنه سيصير مجنوناً؟

وسكت بوارو، ثم استرسل في حديثه: ربما يوجد جنون موروث في أسرته؟

فهزت ديانا رأسها ثم قالت: قيل إن جده وعمته أصيبا بالجنون لفرط ذكائهما.

- أنا أسف من أجلك يا آنستي.

- لا أريد أن تأسف لي، وإنما أريد عملاً.

- ماذا تريدين أن أعمل لك؟

- لا أدري، ولكن لا بد أن يكون في الأمر خطأ ما.

- أرجو أن تخبريني بكل ما يتعلق بخطيبك يا آنستي.

قالت ديانا في عبارة سريعة: اسمه هيو شاندلر، وعمره أربعة وعشرون عاماً، أما أبوه فهو الأميرال شاندلر، وهم يقيمون في قصر «لايد» الذي يتوارثونه منذ عهد الملكة إليزابيث الأولى. وهيو وحيد أبيه، دخل البحرية جرياً على تقاليد الأسرة ولكن أباه أخرجه منها.

- متى أخرجه أبوه؟

- أخرجه فجأة منذ عام تقريباً.

- هل كان هيو مسروراً في البحرية؟

- نعم.

- ألم يجد أية مضايقة؟

- أبداً، ولم يفهم لماذا أقدم أبوه على ذلك.

- ما هو السبب الذي برر به الأميرال شاندلر عمله؟

- قال إنه يريد أن يمرن ولده على إدارة أملاكه. ولكني أظن أنه يخفي وراء هذا السبب شيئاً آخر، ويشاركني في هذا الظن جورج فروبيشر.

- من هو جورج فروبيشر؟

- هو الكولونيل فروبيشر، أقدم صديق للأميرال شاندلر.

- ماذا كان رأيه في تصرف صديقه؟

- كان في حيرة بالغة، ولم يعرف أحد ما الذي دفع الأميرال إلى إخراج ابنه من البحرية.

- حتى ولا ابنه؟

سكتت ديانا قليلاً، وانتظر بوارو لحظة ثم مضى قائلاً: ربما دهش هيو حينذاك من تصرف أبيه، ولكن هل قال شيئاً بعد ذلك؟

غمغمت ديانا بحزن وأسى: منذ أسبوع قال إن أباه كان على صواب.

- هل سألتِه عن سبب ذلك؟

- طبعاً، ولكنه رفض أن يخبرني؟

ولبث بوارو لحظة يفكر ثم قال: هل وقعت في إقليمكم في الفترة الأخيرة أحداث غريبة؟ أحداث أثارت الأقاويل والتكهنات؟

- لا أدري ماذا تعني.

- من مصلحتك أن تخبريني بصراحة.

- حسناً، لقد وقع حادث مزعج، فقد ذُبحت بضع نعاج لفلاح شرس، واعتبر الشرطة الحادث انتقامياً.

- هل قبض على الجاني؟

- لا.

ثم عادت تقول في شيء من الصرامة: إذا كنت تظن...

- أنت لا تعرفين ماذا أظن، ولكن أخبريني بصراحة عما إذا كان خطيبك قد استشار طبيباً.

- كلا، أنا واثقة من أنه لم يفعل ذلك.

- ألم يكن ذلك أسهل طريق أمامه؟

- كلا، لأنه يكره الأطباء.

- وأبوه؟

- أظن أن الأميرال لا يثق فيهم، وهو يقول إنهم تجار جشعون.

- وما هي حالة الأميرال المعنوية؟ هل يبدو سعيداً؟

أجابت بصوت خافت: لقد أدركته الشيخوخة فجأة في...

- في العام الأخير؟

- نعم، وهو يبدو محطماً.

- هل وافق على خطبة ابنه؟

- نعم، لأن أسرتينا متجاورتان من قديم الزمان، وقد فرح الأميرال كثيراً بخطبتنا.

- ماذا قال عندما فسخت الخطبة؟

ظهرت رعشة خفيفة في صوت الفتاة وهي تقول: قابلته أمس صباحاً فألفيته متجهم الوجه، وأمسك بيدي وقال: إنني أفهم يا فتاتي خطورة هذه المسألة وشدة وقعها على نفسك، ولكن لم يكن أمام ابني إلاّ أن يسلك هذا السبيل.

قال بوارو: ولهذا السبب جئت إلى هنا؟

- نعم. هل يمكنك أن تفعل شيئاً؟

- لا أدري، ولكني سأبحث الموضوع على الطبيعة.

* * *

راع بوارو حسن منظر هيو، فقد كان متين الجسم متناسق التركيب، مفتول العضلات عريض الصدر، وتدل هيئته بالجملة على قوة خارقة.

ذهب الاثنان إلى منزل ديانا، ومن ثم إلى قصر لايد حيث يقيم الأميرال شاندلر. وكان الأميرال يجلس مع صديقه الكولونيل فروبيشر. أما الأول فكان يبدو أكبر من سنه الحقيقي، فهو مقوس الظهر غائر العينين داكن الأجفان، وعلى النقيض كان صديقه، نحيل البدن أحمر الشعر يرخي العنان لجفنيه فتحسه على جانب من الخجل، بينما هو لا يفارقك فحصاً بمؤخر عينيه.

جلس بوارو بجوار فروبيشر وانتحى الأميرال وابنه وديانا ركناً على مائدة الشاي يتحدثون، وقال فروبيشر وهو ينظر إلى هيو: شباب فتي وقوة خارقة.

فقال بوارو: نعم، شباب وقوة. إنه طراز ممتاز للرجولة الفتية.

فنظر إليه فروبيشر بشيء من الارتياب وقال: إنني أعرف من أنت.

- ليس هذا سراً.

- هل وكلت إليك الفتاة حل مشكلتها؟

- مشكلة؟

- نعم، مشكلتها مع هيو. ولكني لا أفهم معنى

اختيارها لك لأن الموضوع يكاد أن يكون من اختصاص الأطباء وليس من اختصاصك.

- إن جميع المشكلات من اختصاصي.

- ولكن ماذا تنتظر الفتاة منك؟

- الآنسة مابرلي فتاة مناضلة.

- نعم، إنها فتاة مناضلة، ولكن ألا توجد أشياء لا يمكن النضال ضدها؟

- نعم، مثل المرض الذي يحل بالأسرة.

- مرض تتوارثه الأسرة جيلاً بعد جيل، يختفي حيناً ويظهر حيناً آخر. وقد كان هيو آخر من ظهرت عليه أعراض المرض.

وهنا اختلس بوارو نظرة إلى الجانب الآخر فوجد ديانا وصاحبيها يضحكون ويسمرون وكأنهم لا يكترثون بالمحنة التي تهدد سعادتهم.

- ما هي أعراض ذلك المرض الجنوني؟

- عندما بلغ الفتى سن الثلاثين وصل إلى ذروة القوة، وبعد ذلك اختل عقله وشاع أمره بين الناس فازدادت حالته سوءاً. سيذوي عوده النضير وسيهزم بسرعة، وهذا ما يخشاه هيو طبعاً، ولهذا يحجم عن عرض نفسه على أحد الأطباء حتى لا يحكم عليه باعتزال الناس.

- ما هو شعور الأميرال في هذه المسألة؟

- لقد هدت كيانه وحطمت أعصابه.

- هل يحب ابنه كثيراً؟

- نعم. لقد فني الأميرال في حب ابنه ولم ينجب غيره، ولم يتزوج منذ أن توفيت زوجته وتركت وحيدها طفلاً، فكرس الأب حياته لابنه حتى نما وترعرع.

- هل كان مخلصاً لزوجته؟

- كان يحبها كثيراً، ومنذ غرق بها الزورق حين كان ابنها طفلاً في العاشرة من عمره لم يتزوج، وصرف عنايته للابن. وقد كانت الفقيدة جديرة بهذا الحب، لا من زوجها فقط بل من جميع عارفيها. هل تريد أن ترى صورتها؟

- نعم، إنني أرغب في رؤية الصورة.

نهض فروبيشر واستأذن من صديقه الأميرال، وتبعه بوارو. وبدا له داخل القصر لأول وهلة مظلماً كالجب، ولكنه أحس بروعته وفخامته. وسار به فروبيشر إلى صالة الصور فرأى منها عدداً كبيراً معلقاً على الجدران... الرجال في زيهم البحري الرائع والنساء في أثوابهن الفخمة وحليهن الثمينة. واسترعت نظر بوارو في النهاية صورة إحدى السيدات فوقف يتأملها ملياً وغمغم قائلاً: صورة رائعة تفيض حيوية.

فقال الكولونيل فروبيشر: إن ابنها يشبهها تماماً، ولو

أنه لم يرث عنها الرقة والظرف. وربما يرجع ذلك إلى الفرق بين الذكور والإناث، لكنه فيما عدا ذلك نسخة ثانية من أمه.

ثم صمت لحظة استطرد بعدها قائلاً: وقد ورث -مع الأسف الشديد- عن أجداده الشيء الذي لا يمكن التخلص منه.

وصمت الرجلان لحظة طويلة أحس بوارو خلالها كأنه يعيش في دنيا الأموات، ولكنه تخلص من هذا الشعور بأن التفت إلى الكولونيل فروبيشر فوجده لا يزال يتأمل صورة السيدة الفاتنة، فسأله: هل كنت تعرفها جيداً؟

- لقد نشأنا سوياً منذ الطفولة، ثم دارت الأيام فأُلحقت بخدمة الجيش في الهند. ولما عدت وجدتها قد تزوجت من تشارلز شاندلر.

- هل تعرفه هو أيضاً منذ القدم؟

- تشارلز من أقدم أصدقائي وأكثرهم وفاء على الود والولاء.

- هل كنت تراهما كثيراً بعد الزواج؟

- لقد تعودت أن أقضي إجازتي هنا لأنني أعتبر هذا المكان بيتاً ثانياً لي، وقد اعتاد تشارلز وكارولين أن يحتفظا لي بغرفة خاصة. ولهذا حضرت الآن لأكون إلى جانب الأميرال تشارلز إذا استدعى الأمر ذلك.

وهنا طغت عليه موجة من الحزن، فقال بوارو: وما رأيك في الموضوع الذي نحن بصدده؟

فصمت فروبيشر قليلاً وأرخى جفنيه كعادته، ثم قال: أظن أنه يحسن توفر الصراحة فيما بيننا، فأنا لا أفهم غرضك من البحث في هذه المسألة ولا السبب الذي استدعتك من أجله ديانا إلى هنا.

- لعلك سمعت أن خطبتها إلى هيو قد فسخت؟

- نعم، لقد سمعت.

- وربما تكونه قد عرفت السبب؟

فأجاب فروبيشر في شيء من الإصرار: لست أعرف السبب، فهذه مسألة خاصة لا يجوز لي التدخل فيها.

قال بوارو: لقد أخبر هيو ديانا بأنه ليس من الصواب أن يتزوجها لأن المرض يدنو منه بخطى حثيثة.

فتفصد جبين فروبيشر بالعرق وقال: أتريد أن نعود إلى التحدث عن ذلك المرض اللعين؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ وماذا كان يُنتظر من هيو عندما شعر بأعراض المرض إلاّ أن يفسخ خطبته؟ إنه مرض وراثي وليس لأحد حيلة في دفعه.

- أرجو أن أعود مقتنعاً بصدق نظريتك.

- كل المعلومات التي تريدها عندي.

- ولكنك لم تخبرني بأي شيء.

- قلت لك إنني لا أريد أن أسهب في موضوع المرض.

- لماذا أرغم الأميرال ابنه على ترك البحرية؟

- لأنه السبيل الوحيد الذي كان يجب اتباعه.

- لماذا؟

لكن فروبيشر هزّ رأسه في إصرار دون أن يتكلم، فسأله بوارو بهدوء: هل كان لهذه المسألة علاقة بالنعاج التي ذبحت؟

قال فروبيشر بغضب: إذن فقد سمعت بهذا الموضوع أيضاً؟

- لقد أخبرتني ديانا.

- كان يجدر بهذه الفتاة أن تغلق فمها لأنها لا تعرف شيئاً.

- ما هو ذلك الشيء الذي تجهله؟

فقال فروبيشر والغضب يتطاير من عينيه شرراً: حسناً، سأخبرك بالحقيقة ما دمت تبحث عنها. في إحدى الليالي سمع الأميرال شاندلر ضوضاء وجلبة، فظن أن أحد اللصوص قد هاجم الدار ونهض من فراشه ليتحقق من الأمر، ورأى غرفة ابنه مضاءة فدخلها، فوجد ابنه يغط في

نومه بينما كانت ثيابه ملوثة بالدماء، كما وجد بالغرفة آنية ملأى بالدم، ولكنه لم يستطع أن يوقظ ابنه. وفي صبيحة اليوم التالي سمح بحادث النعاج التي ذبحت، فسأل ابنه فأنكر معرفته بالحادث ولم يتذكر أنه بارح البيت ولا الآنية المليئة بالدم، ولم يتذكر أي شيء يتعلق بهذا الحادث على الرغم من وجود حذائه ملوثاً بالوحل. جاءني بعد ذلك تشارلز يطلب رأيي فيما يجب عمله إزاء هذا الموضوع الخطير، وتكرر الحادث بعد ذلك ثلاث مرات، فلم نجد وسيلة غير إخراج هيو من البحرية ليكون تحت رقابة أبيه الذي لم يستطع أن يتحمل مسؤولية استمرار ابنه المجنون في البحرية.

فقال بوارو: ماذا حدث بعدئذٍ؟

- لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت. أفلا تظن أن هيو قد سلك السبيل السوي عندما فسخ خطبته؟

فلزم بوارو الصمت ولم يحر جواباً.

* * *

لقيا عند عودتهما الأميرال تشارلز، فابتدرهما بقوله: ألا تزالان هنا؟ أريد أن أتحدث معك يا سيد بوارو فهل تسمح بالحضور إلى مكتبي؟

وسار الأميرال يتبعه بوارو إلى أن دخلا غرفة المكتب، وهناك أشار الأميرال إلى ضيفه بالجلوس على مقعد مريح

قائلاً: إنه ليؤلمني كثيراً أن تستدعيك ديانا الحزينة لبحث هذه المأساة الخاصة. ولا أنكر بالطبع شدة وقع الحادث في نفسها، ولكن ألا تظن -يا سيد بوارو- إنها مأساتنا الخاصة وأننا لا نحب أن يتدخل أجنبي في شؤوننا العائلية؟

- أستطيع أن أدرك شعورك تماماً.

- لا يمكن لديانا الصغيرة أن تصدق، وأنا شخصياً لم أصدق لولا أنني قد وقفت أخيراً على الحقيقة.

- أية حقيقة؟

- الوراثة... إن المرض ينتقل في دمائنا بالوراثة.

- ولكنك كنت موافقاً على الخطبة.

- لم تكن لدي فكرة عن هذا المرض، لأن حالة هيو الصحية كانت لا تدل على وجود أي أثر للمرض.

- ألم تستشر أحد الأطباء؟

غضب الأميرال تشارلز وقال مزمجراً: كلا، لن أستشير أي طبيب. إنني مطمئن على ابني ما دام بمأمن تحت رعايتي. ولكن إذا رآه الأطباء فسيحكمون عليه بالحبس الانفرادي كالحيوان المتوحش.

- أنت تقول إنه بمأمن، ولكن هل يأمن الآخرون شره؟

- ماذا تعني؟

ولكن بوارو بقي صامتاً، فقال الأميرال بمرارة: كل إنسان ميسر لما خلق له. إن مهنتك هي البحث عن المجرمين وابني ليس مجرماً.

- ولكن مسألة النعاج؟

- من الذي أخبرك عنها؟

- ديانا مابرلي وصديقك الكولونيل فروبيشر.

- كان جديراً به ألا يخوض في هذا الموضوع.

- ولكنه صديقك منذ عهد طويل، أليس كذلك؟

- نعم، فروبيشر من خيرة أصدقائي.

- وكان صديقاً لزوجتك أيضاً؟

قال الأميرال تشارلز وهو يبتسم: نعم، وكان يحبها حباً شديداً كما أعتقد. لقد امتنع عن الزواج طيلة أيام صباها، ولكنني كنت أوفر منه حظاً فظفرت بها وجعلتها تنتزعه من قلبها.

- هل كان الكولونيل فروبيشر معكم عندما غرقت زوجتك؟

- نعم، كان فروبيشر معنا في كورنوول، ولكنه آثر أن يبقى في المنزل في ذلك اليوم. وخرجت مع زوجتي وركبنا زورقاً أخذ يطفو بنا على الأمواج في رفق وهدوء، حتى

فاجأتنا عاصفة قوية قذفت بالقارب إلى إحدى الصخور فحطمته.

وهنا صمت قليلاً وعاد يقول بصوت متهدج: أمسكت زوجتي وحاولت أن أنقذها من الموت، ولكني لم أستطع، فقد ابتلعها البحر ولفظها في اليوم الثالث، فوجدنا جثتها طافية على سطح الماء. ولم يكن هيو حينذاك معنا، فحمدت الله على لطفه بنا، ولكني -مع الأسف الشديد- وددت الآن لو كان حاضراً في تلك المأساة حتى لا يمر بمحنته الحاضرة.

واعترت الأميرال موجة من الأسى، فتنهد ثم قال: لا يوجد من سلالة شاندلر غيري أنا وابني، وستنقطع الذرية بموتنا. كنت أؤثر ألا أتكلم عن المرض إذا قدّر لابني الزواج من ديانا، ولكني حمدت الله على عدم إتمام الزواج، وليس لدي يا سيد بوارو من الأقوال أكثر مما ذكرت.

* * *

جلس بوارو في حديقة الورد مع هيو بعد أن تركتهما ديانا، والتفت إليه الشاب بمحياه الصبوح وقال: هل أفهمتها المسألة يا سيد بوارو؟

ثم سكت قليلاً واستطرد يقول: لا تريد ديانا أن تلقي سلاحها. إنها تؤثر أن تستمر في المعركة إلى النهاية لأنها تعتقد أنني سليم العقل.

- بينما تعتقد أنت أنك مجنون؟

- لا أعتقد أنني قد جننت فعلاً، ولكنني أشعر بأنني في طريقي إلى الجنون. غير أن ديانا لا تصدق ذلك لأنها تراني سليماً معافى.

- وإذا تبين لكم أنكم مخطئون جميعاً في ظنكم هذا، فماذا يحصل؟

فتنفس هيو الصعداء وقال: ولكنني رأيت ذات ليلة حلماً، وهذا الحلم يدل على جنوني الفعلي، ورأيت حلماً آخر أمس... لم أكن في هذا الحلم رجلاً وإنما كنت في هيئة ثور ضخم مجنون أجري في وهج الشمس ويلوث فمي الغبار والدم، ثم انقلبت بعد ذلك إلى كلب عقور أجري هنا وهناك على غير وعي، فيفزع مني الصغار ويحاول الكبار أن يطلقوا عليّ الرصاص فيستريحوا من شري، ويقدم إليّ أحدهم في النهاية وعاء به ماء لأشرب منه، ولكني امتنعت.

ثم توقف عن الحديث لحظة وعاد يقول: ولما استيقظت وجدت أن ما حدث لي في المنام كان حقيقة، لأنني عندما توجهت لأغسل وجهي وجدت فمي مغلقاً ولساني جافاً، وكنت أحس بعطش شديد ولكني لا أقوى على الشراب ولا أحتمل أن أزدرد شيئاً ما. يا إلهي! لم أكن قادراً حتى على تناول الماء بسهولة.

تمتم بوارو من بين شفتيه بعبارات التأسي والإشفاق، وتحول لون الفتى وجحظت عيناه، ثم دفن وجهه بين ركبتيه

كأنه يخاف من شيء قادم عليه، ومضى يقول: وهناك أشياء أراها في اليقظة، أرى الأطياف والمناظر المزعجة وأشعر بأنني قادر على الطيران كالذبابة فأترك فراشي لأسبح في طبقات الأثير.

رثى بوارو كثيراً لحالة الفتى وقد عاد يقول: فهل هناك أدنى ريب في جنوني يا سيد بوارو؟ إنه مرض في الدم ورثته عن أجدادي، والحمد لله الذي لم يقدّر لي الزواج من ديانا حتى لا تنجب أطفالاً مجانين.

ثم وضع يده على كتف بوارو وقال: أرجوك أن تفهمني جيداً حتى تقتنع بصدقي، والأيام وحدها كفيلة بأن تنسيها صدمتها الحالية، خصوصاً إذا تزوجت ستيفن جراهام، وهو شاب قوي سليم العقل لا يشوبه شيء وأعتقد أنها ستكون معه سعيدة آمنة، وسيرى أهلها أنهم كانوا موفقين في العدول عن زواجنا واختيار جراهام زوجاً صالحاً لابنتهم.

فقاطعه بوارو بقوله: لماذا سيرتاح أهلها لفسخ الخطبة؟

ارتسمت على وجه هيو ابتسامة عذبة جميلة وقال: لأن ثروة والدتي قد آلت إليّ، وأنا بدوري سأتركها لديانا.

- لكن ربما تمتد حياتك إلى سن الشيخوخة.

- كلا، فلن يمتد بي الأجل طويلاً كما تظن يا سيد بوارو.

ثم نظر إلى جوار بوارو وقال وهو يرتعش: يا إلهي! انظر إلى هذا الهيكل العظمي الذي يهتز بجانبك، إنه يناديني...

ثم اتسعت حدقتاه وقال في فزع وخوف كالأطفال: ألا ترى شيئاً؟

هز بوارو رأسه بهدوء، فقال هيو بصوت أجش: لا تهمني هذه الرؤى المزعجة على كل حال، ولكني لا أخاف شيئاً مثل الأحلام المزعجة، فأنا لا أنسى مثلاً منظر الدم في غرفتي وعلى ثيابي. لقد وجدت في صباح أحد الأيام ببغاءنا العزيز مذبوحاً، كما وجدت بيدي موسى عليها آثار الدماء.

ثم دنا من بوارو وهمس قائلاً: وقد حصلت حوادث أخرى في قريتنا. وُجدت بعض النعاج والحملان مذبوحة ورأوا كلباً مقتولاً... حتى إن أبي اضطر إلى غلق الأبواب كل مساء. ومع ذلك فإنها توجد مفتوحة في الصباح، فلا بد من أنني أملك مفاتيح في مكان مجهول وأن الروح الشريرة تتقمصني كل مساء فتحيلني وحشاً مخيفاً وشيطاناً مريداً أظمأ إلى الدماء، ولا أستطيع شرب الماء، الماء...

ثم دفن رأسه بين يديه فجأة، وبعد دقيقتين سأله بوارو: لم أستطع معرفة السبب في عدم عرض نفسك على طبيب؟

فهزّ هيو رأسه وقال: ألا تفهم السبب؟ ألا تراني قوياً

كالثور جباراً كالمارد ويمكن أن أعيش طويلاً؟ لكني أفضل الموت السريع على الحياة بين أربعة جدران كما سيأمرني الأطباء بأن أفعل، وهناك طرق عديدة للانتحار ستعرفها ديانا إذا أرادت.

وبدلاً من أن يساجله بهذه الآراء قال له: ماذا تأكل وماذا تشرب؟

فمال هيو برأسه إلى الوراء وضحك بصوت مرتفع وقال: هل تظن أن ما بي نتيجة سوء الهضم؟ هل هذه فكرتك؟

فأعاد عليه بوارو السؤال مرة ثانية، فأجاب: آكل وأشرب كسائر الناس.

- ألا تتعاطى شيئاً للعلاج؟

- هل تعتقد أن العقاقير تشفيني من هذه الاضطرابات؟ هل هناك علاج للأمراض العقلية؟

فقال بوارو بصوت جاف: هل يوجد بمنزلكم مَن يعاني اضطراباً في النظر؟

فحملق فيه هيو وقال: أبي يعاني اضطراباً شديداً في عينيه، وهو يتردد كثيراً على طبيب للعيون.

- أظن أن الكولونيل فروبيشر قد قضى معظم حياته في الهند؟

- نعم، كان ملتحقاً بالجيش الهندي وعاش في الهند

زمناً طويلاً، حتى أصبح ملماً بطبيعة البلاد وعادات أهلها وتقاليدهم.

فصمت بوارو قليلاً، ثم نظر إلى محدثه وقال: يلوح لي أنك قد حلقت ذقنك؟

مر هيو بأنامله على ذقنه مجيباً: نعم، غير أنها لا تزال خشنة. وقد لاحظ أبي ذلك ذات مرة، ولكن أعصابي مضطربة في هذه الأيام كما تعلم وأجد مشقة في الحلاقة.

- يحسن أن تستعمل بعض الدهون للتطرية.

- إنني أستعمل بعض دهون أعطانيها عمي فروبيشر.

ثم ضحك فجأة وقال: ترى لماذا أصبحنا نتحدث كالنساء عن العطور والدهون والعقاقير؟ ما الذي ترمي إليه يا سيد بوارو؟

- أريد أن أبذل أقصى ما في وسعي لخدمة ديانا مابرلي.

فتغيرت ملامح هيو وبدت عليه علامات التعقل والروية، ووضع يده على كتف بوارو وقال: ابذل أقصى ما في جهدك لمساعدتها. قل لها أن تحاول أن تنساني ولا تفكر فيّ مطلقاً، كاشفها بالحقيقة المرة لعلها تقتنع، أيد حديثك إليها ببعض القصص التي رويتها لك عن متاعبي واضطراباتي لتنساني إلى الأبد.

* * *

قال بوارو: أرجو أن تتشجعي يا آنستي لأنك تحتاجين إلى شجاعة فائقة.

فصاحت ديانا قائلة: إذن فقد ظهرت الحقيقة وظهر لك أنه مجنون؟

- أنا لم أقل إنه مجنون. إن هيو سليم العقل.

فدنت منه الفتاة وقالت: ولكن الأميرال شاندلر والكولونيل فروبيشر يجزمان بأنه مجنون، وهو نفسه يعتقد بأنه مجنون.

- وأنت يا آنستي؟

- أنا؟ أنا أقول بأنه ليس مجنوناً، ولهذا... وسكتت قليلاً ثم قالت: ولهذا طلبت الاستعانة بك.

- نعم، لأنني لا أستطيع التكهن بأي سبب آخر لاستدعائي سوى اعتقادك بأن هيو ليس مجنوناً، هل يوجد سبب آخر يا آنستي؟

- لا أستطيع أن أفهم هدفك من هذا السؤال!

- من هو ستيفن جراهام؟

- ستيفن جراهام؟ أوه، إنه أحد الناس.

أمسكت الفتاة بذراع بوارو وقالت: ماذا يدور بخلدك؟ فيم تفكر؟ إنك تتوارى خلف هذا الشارب الكبير وتنظر إلى ضوء الشمس، ولكنك لم تخبرني بأي شيء. لماذا تبعث

الرعب في قلبي؟ لماذا أخافك كثيراً؟

قال بوارو: ربما لأنني أشعر بدوري بخوف شديد.

فحدجته بعينيها الرماديتين وهمست قائلة: ممَّ تخاف؟

فتنهد بعمق وقال: إن القبض على القاتل أسهل من منعه من ارتكاب القتل.

- القاتل؟ أرجو ألا تذكر أمامي هذه الكلمة.

غير بوارو أسلوبه وموضوع الحديث وقال بسرعة وحزم: من الضروري يا آنستي أن نقضي هذه الليلة سوياً لتدبير مسألتك.

- حسناً، ليس لديّ أي مانع، ولكن لماذا؟

- لأننا يجب ألا نضيع لحظة من وقتنا، وقد قلت بأن لديك شجاعة كافية، فأرجو أن تبرهني على شجاعتك وأن تنفذي ما آمرك به دون أي سؤال.

هزت رأسها بصمت وخرجت، وتبعها بوارو.

* * *

وجد غرفة هيو معدة إعداداً تاماً، ورأى بأحد أركانها حوضاً ضخماً عليه صنبوران للماء الساخن والبارد، وبأعلاه رف زجاجي عليه بضع أنابيب وزجاجات. ثم هبط إلى الدور الأول ولحقته ديانا، ولكن الأميرال تشارلز خرج من غرفة المكتبة ودعاه للدخول، فدخل بوارو إلى المكتبة

مع الأميرال وأغلق الباب.

قال الأميرال تشارلز: أحب أن أُفهمك يا سيد بوارو أنني لا أحب ذلك.

- ما هو ذلك الذي لا تحبه؟

- ديانا مصرة على أنك وهي ستقضيان هذه الليلة عندي، ولست مستعداً لأن أضيفكما.

- ليست المسألة هي مسألة الضيافة.

- قلت لك بكل صراحة يا سيد بوارو أنني لست مستعداً لهذه الضيافة، ولم أفهم الدافع لك على البقاء هنا.

- لأنني أحاول إجراء بعض التجارب.

- ما هو نوع هذه التجارب؟

- معذرة يا سيدي لأن هذا سر مهنتي.

- ولكني لم أستدعِك يا سيد بوارو لمباشرة الموضوع في هذا المكان.

قاطعه بوارو بقوله: أرجو أن تصدقني -يا سيدي الأميرال- إذا قلت لك إنني مقدر لوجهة نظرك، وقد سمعت منك ومن الكولونيل فروبيشر ومن ابنك هيو روايات لا سبيل إلى تصديقها إلاّ بعد أن أرى بعيني وأتحقق بنفسي.

- ما الذي تريد أن تراه؟ لقد قلت لك بأنني أغلق الأبواب على هيو كل ليلة.

- ومع ذلك يحدث أحياناً كما أخبرني هيو أن توجد الأبواب مفتوحة في الصباح.

- ماذا تعني؟

- ألم تجد بنفسك الباب مفتوحاً في الصباح؟

فقطب شاندلر حاجبيه ثم قال: يخيل إليّ أن فروبيشر هو الذي يفتح الباب.

- أين تترك المفتاح. هل تتركه بموضعه من القفل؟

- كلا، وإنما تعودت أنا وفروبيشر وخادمنا ويذر على وضعه بمكان بجوار الباب، ولا يؤخذ من مكانه إلاّ في الصباح. وقد أخبرت الخادم بأننا نخبئ المفتاح من هيو لأنه مصاب بمرض النوم، بل أستطيع أن أقول إن خادمنا يعلم ما هو أكثر من ذلك ولكنه لا يبوح بشيء، فقد خبرت أمانته وعظيم إخلاصه لنا أثناء خدمته الطويلة لنا.

- هل يوجد مفتاح آخر؟

- هذا ما لا أعرفه.

- لعل بعضهم قد صنع مفتاحاً آخر.

- ولكن مَن؟

- يعتقد ابنك أن لديه مفتاحاً آخر مخبأ في مكان ما، ولو أنه لا يعرفه في يقظته.

وهنا صاح الكولونيل فروبيشر من آخر الغرفة: لا أحب

ذلك يا تشارلز ولا أوافق على وجود الفتاة...

فقاطعه الأميرال شاندلر بسرعة: هذا ما كنت أفكر فيه، يجب ألا تكون الفتاة حاضرة معك. تعال بمفردك يا سيد بوارو إذا شئت.

قال بوارو: إن هيو يحبها.

- ولذلك لا يجب أن تكون موجودة، لا أحد يستطيع التكهن بما يفعله المجنون.

- ما دام الأمر كذلك فديانا هي التي تقرر ما فيه مصلحتها.

وخرج بوارو من الغرفة فوجد ديانا تنتظره في السيارة، فقالت له: هيا لنحضر ما يلزمنا لهذا المساء ثم نعود في الوقت المناسب.

وانطلقت بهما السيارة، وقص عليها بوارو ما سمعه من الأميرال شاندلر والكولونيل فروبيشر، فضحكت وقالت باحتقار: هل يظنان أن هيو سيؤذيني؟

وطلب منها بوارو أن تقف أمام مخزن للأدوات الطبية ليبتاع فرشاة أسنان، ولشد ما أثار استغرابها أن يطول انتظارها له من أجل ابتياع الفرشاة المطلوبة.

* * *

كان بوارو جالساً في غرفة النوم عند بزوغ الفجر،

وكان يترقب ما تأتي به الأحداث بعد أن دبر خطته. وما أن سمع وقع أقدام في الممشى حتى فتح الباب، فرأى رجلين هما: شاندلر وفروبيشر. وقال الأول: هل تحضر معنا يا سيد بوارو؟

رأوا شخصاً ممدداً على الأرض أمام غرفة ديانا لم يتبينوه في اللحظة الأولى، وعندما اقتربوا منه وجدوا هيو مبهور الأنفاس فاقد الصواب. كان يرتدي ثياب النوم ويمسك في يده سكيناً عليها آثار الدم. فهتف بوارو: يا إلهي!

ولكن فروبيشر قال بحدة: إنها بخير ولم يمسها بسوء.

ثم نادى بأعلى صوته: ديانا، دعينا ندخل.

ففتحت ديانا باب غرفتها، وبدا وجهها شاحباً كالأموات وقالت: ما الذي حدث؟ كنت أسمع صوت محاولة لاقتحام غرفتي فانزعجت.

فقال الكولونيل فروبيشر: الحمد لله، فقد كان بابك مغلقاً بالقفل.

- لقد نصحني السيد بوارو بأن أوصد الباب.

طلب منه بوارو أن ينبه هيو ويحضره إلى داخل الغرفة، ونظرت الفتاة إلى هيو بعينين زائغتين وقالت: هيو؟ إنه هيو من غير شك... ماذا أرى في يده؟

فقال الأميرال: لم يذبح إنساناً ولله الحمد، وإنما ذبح قطاً رأيت جثته في البهو ثم جاء إلى هنا.

فقالت ديانا بصوت مرتعش من الخوف: هنا... هل جاء إليّ؟

فتنبه هيو عندما سمع صوت ديانا وقال: هيه... ماذا حدث؟ لماذا أكون...

ثم حملق في السكين التي في يده وقال في انزعاج: ماذا فعلت؟ وأخذ يقلب بصره فيمن حوله ويقول: هل هاجمت ديانا؟

فهز الأميرال رأسه وسأله ابنه: أخبرني عما حدث؟ يجب أن أعرف. آه، لقد فهمت.

وهنا بدأت خيوط ضوء الفجر تتسلل إلى الغرفة، فأزاح بوارو ستارة النافذة فامتلأت الغرفة بأشعة الشمس، وقام هيو يستقبل الصباح بابتسامة عذبة ويقول: ما أجمل الدنيا! سأذهب إلى الغابة لاصطياد الأرانب.

ثم خرج الفتى من الغرفة، وأدرك أبوه أنه ينوي الانتحار فحاول اللحاق به، ولكن فروبيشر أمسك بذراعه وقال: دعه يذهب... ذلك أفضل له.

وألقت ديانا بنفسها على الفراش يائسة حزينة.

* * *

كان هيو يعد بندقيته للصيد عندما فاجأه بوارو بقوله: لا، إنك لن تفعل ما يدور بخلدك.

فأجابه الفتى: أرجو ألا تتدخل في شؤوني، دعني وشأني وإلاّ...

- لا.

- ما الذي كان سيحدث لو لم يكن باب غرفتها مغلقاً؟ كنت ذبحتها من غير شك. ولكني ذبحت القطة، أليس كذلك؟

- كلا، إنك لم تذبح القطة ولا الببغاء ولا النعاج!

فحملق فيه هيو وسأله: هل أنت المجنون أم أنا؟

- لم يكن أحدنا مجنوناً.

وسرعان ما وصل الأميرال تشارلز والكولونيل فروبيشر تتبعهما ديانا، فاستقبلهم هيو بقوله: هذا الرجل يقول إنني لست مجنوناً.

فقال بوارو: يسعدني أن أقرر أنك سليم العقل لا تشوبك أية لوثة.

فضحك كالمجنون وراح يتساءل باستخفاف: إنها لدعابة لطيفة ألاّ أكون مجنوناً. إذن فكيف ذبحت النعاج والببغاء والقطة؟

- قلت لك إنك لم تذبحها.

- من الذي فعل ذلك إذن؟

- شخص يحقد عليك ويريد أن يظهرك أمام الناس مجنوناً مختل الشعور، ففي كل مرة كان يدس لك مخدراً ثم يضع في يدك سكيناً أو موسى ملوثة بالدم. وأما الدم الذي وُجد في الآنية في غرفتك فهو ما تبقى من غسل ذلك الشخص ليديه الملوثتين بالدماء.

- ولكن لماذا يحدث كل هذا؟

- لكي يدفعك إلى الانتحار كما كنت تنوي في هذه اللحظة.

فجحظت عينا هيو، والتفت بوارو إلى الكولونيل فروبيشر وقال: لقد عشت وقتاً طويلاً في الهند، ولا شك أنك عرفت كيف يستطيعون هناك أن يجعلوا من العاقل مجنوناً بالمخدرات.

- لم أجرب طرقهم بنفسي ولكني سمعت عنها.

فقال بوارو: إنهم أحياناً يستعينون ببعض العقاقير ليسلبوا بواسطتها شعور المرء وإدراكه، وأحياناً يضعون عقاراً مخدراً في الدهون التي تستعمل عند الحلاقة فتتسرب سمومها إلى داخل الجسم، فتحدث جفافاً في الحلق والفم حتى ليتعذر على الإنسان أن يبلع ريقه. وهذا ما شكا منه هيو ذات مرة.

ونظر بوارو إلى هيو وقال: ولكي أزيل آخر أثر للشك

من ذهنك أخذت بعض الدهون التي تستعملها في الحلاقة وحللتها في العمل فوجدت بها عقار سلفات الأثروبين.

فسأله هيو في دهشة بالغة: من فعل هذا؟ ولماذا؟

- هذا ما كنت أحاول الكشف عنه منذ حضوري. فهناك دوافع خفية للتخلص منك، وديانا هي الشخص الوحيد الذي يستفيد مالياً من موتك ولكنني لم أجد دليلاً واحداً ضدها.

- وهذا ما أرجوه بكل قوة.

- ثم لاح لي خاطر آخر، هو ذلك الثالوث الخالد المكون من رجلين وامرأة. فالكولونيل فروبيشر كان يحب والدتك، ولكن أباك تزوجها.

فصاح الأميرال تشارلز: فروبيشر... فروبيشر؟ لن أصدق!

قال هيو في لهجة من الشك البالغ: هل تعني أن البغض يعيش حتى ينصبّ أثره على الابن؟

- نعم، لظروف خاصة.

صاح فروبيشر قائلاً: إنه كذب صريح، لا تصدقه يا تشارلز.

فابتعد تشارلز عنه وقال لنفسه: العقاقير، الهند... لقد فهمت كل شيء.

ونظر بوارو إلى فروبيشر وقال: لعلك كنت تشك في أن هيو هو ابنك، فلماذا لم تكاشفه بالحقيقة؟

- لم أكن متأكداً من ذلك. لقد جاءتني كارولين ذات ليلة خائفة فزعة، ولم أعرف لخوفها سبباً... وفقدنا صوابنا وارتكبنا ما لم يكن لنا منه بد، وانتهى كل شيء. ولكن كارولين لم تخبرني بعد ذلك بأن هيو ابني، غير أني شككت في الأمر، وعندما ظهرت عليه أعراض الجنون أدركت أن وهمي كان باطلاً وأنه ليس ابني.

فقال بوارو: نعم، لقد أزال هذا الجنون المصطنع من ذهنك كل شك. ولكن ألم ترَ أن ملامح هيو تشبهك تماماً؟ لقد استطاع تشارلز بفراسته أن يتحقق من هذا التشابه منذ سنين طويلة، ولعله استطاع أن يستخلص الحقيقة من زوجته نفسها. وأعتقد أنها كانت تخافه، وأنها حين رأت أعراض الجنون تظهر في سلوكه نحوها هرعت إليك. أنت الشخص الوحيد الذي أحبته... وبدأ تشارلز يدبر خطته الانتقامية، فماتت زوجته في حادثة الزورق التي لا يعرف حقيقتها سواه، ثم أخذت تغلي في قلبه نيران الحقد والكراهية لذلك الصبي الذي يحمل اسمه من غير أن ينجبه. وسمع منك كيف يستعملون في الهند العقاقير لسلب ذوي العقول عقولهم، فاستخدمها لتحقيق هدفه والانتقام من هذا الفتى الذي يذكّره دائماً بجريمة زوجته... لكي يراه مخبول العقل يائساً من الحياة. الأميرال تشارلز هو الذي ذبح النعاج والببغاء والقط، وهو الذي لوث ثياب الفتى بالدماء وغسل

يديه في الوعاء وأراد أن يجعل هذا الفتى كبش الفداء! هل تعرف متى شككت في نوايا هذا الرجل؟ عندما امتنع بشدة عن عرض ابنه على الطبيب. عندها أدركت أنه يمتنع عن ذلك لأنه يخشى أن يقول الأطباء إن جنون هيو يمكن شفاؤه بخلاف جنونه هو الموروث عن الآباء.

قال هيو بهدوء: عاقل... إذن فأنا عاقل؟

ثم تقدم من ديانا والكولونيل فروبيشر وقال: وأنتما أيضاً عاقلان لأن عائلتنا مبرأة من المرض.

فصاحت ديانا والبشر يعلو وجهها: هيو...

أما الأميرال تشارلز فقد أخذ البندقية من هيو وهو يقول: أظن أنه يمكنني أن أصطاد بها الأرانب.

ولكن فروبيشر تقدم من صديقه محاولاً منعه مما انتواه، فأمسك بوارو بذراعه وقال: دعه يذهب، فذلك أفضل له. أنت نفسك قلت ذلك منذ قليل.

وابتعدت ديانا مع هيو، أما بوارو وفروبيشر فلبثا ينظران إلى آخر رجل من سلالة شاندلر وهو يقطع طريقه وسط الغابة... ثم سمعا صوت طلق ناري.

* * *

الأفعى ذات الرؤوس السبعة

نظر بوارو إلى الرجل الجالس أمامه. إنه الدكتور تشارلس أولدفيلد، في الأربعين من عمره، رمادي الشعر، ذو عينين زرقاوين لا تكادان تستقران في محجريهما. وتردد قليلاً قبل أن يتكلم ثم قال: لقد حضرت إليك برجاء غريب يا مسيو بوارو، ويحسن أن أفضي إليك هنا بكل شيء لأنني متأكد من أن مسألتي تكون مستعصية.

قال بوارو: ما دام الأمر كذلك فدعني أحكم.

قال الدكتور أولدفيلد: لا أدري لماذا ظننت ذلك، فربما...

فأتم له بوارو كلمته قائلاً: ربما أتمكن من مساعدتك. حسناً، أخبرني عن مسألتك.

اعتدل الدكتور أولدفيلد وقال: لا فائدة من أن يلجأ الإنسان إلى الشرطة، فكثيراً ما يفشل رجالهم في القضايا الهامة... وكل يوم يمر علينا تزداد الحالة سوءاً.

- ما هي تلك الحالة التي تزداد سوءاً؟

- الإشاعات يا سيدي تزيد موقفي حرجاً، فمنذ عام تقريباً ماتت زوجتي بعد مرض عضال لازمها سنين عديدة، ولكن الناس يشيعون أنني قتلتها بالسم.

قال بوارو: آه، لكن هل دسست لها السم؟

فنهض الدكتور أولدفيلد مذعوراً وقال: مسيو بوارو...

- هون عليك واجلس وسنبحث كل شيء، أنت لم تدسّ السم لزوجتك. أظن أن مقر عملك في الريف؟

- نعم، في لوجبرو بمقاطعة بركشير. أكثر الأمكنة صلاحية للإشاعات، حيث تنمو وتكبر وتتضخم في سهولة ويسر.

واقترب الدكتور بكرسيه قليلاً واستمر يقول: ليست لديك فكرة واضحة يا مسيو بوارو عما أعانيه، فأنا لم أُقم وزناً لما كنت أسمعه في أول الأمر، ولكن كلما مرت الأيام ازداد نفور الناس مني. وفي الشارع أرى العابرين يحاولون تجنبي، وقد أصاب مهنتي الكساد والبوار، وأينما ذهبت وجدت الناس يتهامسون وينظرون إليّ شزراً قائلين بصوت أكاد أسمعه إنني سفاك أثيم. وأخيراً وصلني خطاب تهديد أو خطابان.

ثم صمت قليلاً وعاد يقول: لا أدري ماذا أفعل إزاء هذه الحالة ولا كيف أحارب هذه الأكاذيب. كيف يدحض الإنسان أقوالاً لا يواجهه بها مخترعوها. إنني ضعيف أعزل، وقد أُثخن قلبي بالجراح.

فهزّ بوارو رأسه وقال: نعم، الإشاعات في الحقيقة تشبه الأفعوان ذا السبعة رؤوس، كلما قطعت رأساً نبت

في مكانه رأسان.

قال الدكتور أولدفيلد: هذه هي الحقيقة، ولهذا تراني قد عجزت وأسقط في يدي، ولذلك لجأت إليك في النهاية. ولكني لا أزال ضعيف الأمل في النجاح.

فصمت بوارو لحظة ثم قال: لست متأكداً إذا كنت سأجد في قضيتك ما يحفزني على الاستمرار في تحقيقها، ولكني أشعر برغبة قوية في الفتك بهذا الأفعوان الخطير الذي يؤرقك. أخبرني قبل كل شيء عن الظروف التي ساعدت هذه الإشاعات على الانتشار؟ لقد ماتت زوجتك منذ عام تقريباً، فما هو سبب وفاتها؟

- قرحة في المعدة.

- هل تمّ فحص الجثة؟

- لا، لأنها كانت تعاني هذا المرض منذ أمد طويل.

فهزّ بوارو رأسه وقال: إن الشبه قريب جداً بين أعراض التسمم بالزرنيخ وأعراض قرحة المعدة، وهذه حقيقة لا يكاد يجهلها أحد في هذه الأيام. وفي العشر سنوات الأخيرة حدثت أربع وفيات وتمّ الدفن بلا معارضة أو شبهة لوجود شهادات طبية جاء فيها أن الوفاة كانت بسبب قرحة في المعدة. هل كانت زوجتك أكبر منك سناً؟

- كانت تكبرني بخمس سنوات.

- متى تزوجتما؟

- منذ خمسة عشر عاماً.

- هل كانت تملك ثروة؟

- نعم، كانت غنية. وقد بلغت تركتها نحو ثلاثين ألف جنيه.

- تركة هائلة... وقد آلت إليك طبعاً؟

- نعم.

- هل كنتما على وفاق أثناء حياتها؟

- بالتأكيد.

- ألم يحدث بينكما شجار؟

قال الدكتور أولدفيلد بعد تردد قليل: كانت زوجتي صعبة المراس خشنة الطبع، وكانت بالنسبة لمرضها لا يعنيها في الدنيا إلاّ صحتها، ولهذا كانت دائمة الغضب تتصور جميع أعمالي بعيدة عن الصواب.

قال بوارو: آه، لقد فهمت. ربما كانت تشكو من إهمالها وعدم تقديرها ومن أن زوجها قد تعب من طول مرضها وأصبح يتمنى لها الموت.

لاحت على وجه الدكتور أولدفيلد علامات التأكيد لهذا الاستنتاج وقال وهو يبتسم: أصبت يا سيد بوارو.

فاستطرد بوارو يقول: أكان لديها ممرضة تعنى بها؟

- نعم، ممرضة ماهرة وقليلة الكلام ولا تحب التدخل في غير عملها.

- ولكنها امرأة فحسب، ومهما كان ظاهرها يدل على الرزانة والصمت فهي تحب الكلام لأن طبيعتها أرادت لها ذلك. ولا بد للثرثارة أن تخطئ، فالممرضة تثرثر، والخادم يثرثر، حتى تجد هذه الثرثرة طريقها المعبّد إلى عوامّ القرية وغوغائها. هل يمكنني أن أعرف من هي السيدة الأخرى؟

فلاح الغضب على محيا الدكتور أولدفيلد وقال: لا أكاد أفهم قصدك؟

قال بوارو بهدوء: بل أظن أنك تفهم. من هي السيدة التي اقترن اسمها باسمك؟

فنهض الدكتور أولدفيلد محتقن الوجه وقال: ليس في القضية أي ظل امرأة، وأنا آسف لإضاعة وقتك يا سيد بوارو.

ثم اتجه إلى الباب فقال بوارو: وأنا آسف أيضاً، لأنه يهمني أن أساعدك بشرط أن تخبرني بالحقيقة.

- لقد أخبرتك.

- لا.

فوقف الدكتور أولدفيلد والتفت إليه قائلاً: لماذا تصر على وجود سيدة في هذه القضية؟

- أتظن يا سيدي الطبيب أنني أجهل عقلية النساء؟ إن الإشاعات في القرى لا تروج إلاّ حول العلاقات العاطفية، فإذا سمم الرجل زوجته مثلاً ليقوم برحلة إلى القطب الشمالي وحيداً لا يكدر صفوه شيء لم يهتم بالأمر أحد، أما إذا كان في نيته أن يتزوج امرأة أخرى فإنه يصبح في نظر الناس بغيضاً آثماً، وتسري الإشاعة وتنتشر. هذه ظاهرة نفسية عامة.

قال الدكتور أولدفيلد: لا يهمني ما يجول في أذهان هؤلاء الأوغاد.

رد بوارو: عد إذن واجلس وأجب على سؤالي.

عاد الدكتور أولدفيلد إلى مكانه ببطء وقال: أظنهم تناولوا في أحاديثهم الخرقاء الآنسة جان مونكريف، الفتاة التي تعمل معي في العيادة.

- هل مضى عليها في خدمتك وقت طويل؟

- ثلاث سنوات تقريباً.

- أكانت زوجتك تحبها؟

- لا، لا أظن.

- هل كانت تغار منها؟

- كانت من هذه الناحية في منتهى الغموض.

فابتسم بوارو وقال: غيرة الزوجات من الأمور الشائعة،

وقد علمتني التجارب أن الغيرة لا توجد عندهن من دون أسباب حقيقية. وبالمثل تكون غيرة الرجال على زوجاتهم، فلا بد للغيرة عند الجنسين من وجود دوافع قوية، فلا دخان من غير نار وأقل شبهة تؤدي إلى حقائق مروعة.

قال الدكتور أولدفيلد: ولكني لم أقل لجان مونكريف أبداً كلاماً يضيرني أن تسمعه زوجتي.

- ربما، ولكن هذا لا يغير من الحقيقة التي ذكرتها لك.

وانحنى بوارو إلى الأمام قليلاً وقال وهو يضغط على كلماته: سأبذل قصارى جهدي في قضيتك يا دكتور، ولكن يجب أن تصارحني بكل شيء، فهل كان حقاً أنك أهملت العناية بزوجتك قبل موتها؟

صمت الدكتور أولدفيلد لحظة ثم قال: أظن أنك ستصنع شيئاً من أجلي يا سيد بوارو، ولهذا سأتوخى معك الصدق والأمانة. الحق أنني لم أعنَ بزوجتي كما يجب. كنت لها زوجاً طيباً ولكني لم أشعر نحوها بحب حقيقي.

- وهذه الفتاة جان؟

تفصد جبين الطبيب بالعرق وقال: ربما كنت تزوجتها لولا هذه الشائعات الوقحة.

قال بوارو: قد وضحت لي قضيتك الآن وسأتولاها، ولكن يجب ألاّ تنسى أنني سأقوم بالبحث والتحقيق.

فرد الدكتور أولدفيلد: أخشى أن يؤذيني بحثك.

ثم صمت لحظة كالمتردد وقال: أنا لا أستطيع أن أتهم شخصاً معيناً في الواقع، ولهذا أخشى أن تقع التهمة على عاتقي أنا وأصبح في مركز أسوأ مما أنا فيه الآن.

ثم حملق في وجه بوارو وتابع: أرجو أن تخبرني بصراحة تامة عما إذا كان يوجد مخرج من هذه الورطة.

فقال بوارو: لا بد من إيجاد مخرج.

* * *

قال بوارو لخادمه الخاص: سنذهب إلى الريف يا جورج.

- أحقاً يا سيدي؟

- مهمتنا هذه المرة هي تحطيم أفعى لها سبعة رؤوس.

- يخيل إليّ أنها أفعى خطيرة يا سيدي.

- لا أقصد الأفعى من حيث هي دم ولحم.

- لا أفهم ماذا تعني يا سيدي.

- كنت أتمنى لو كان هدفنا أفعواناً حقيقياً، ولكن عدونا هذه المرة شيء مجهول خلق جواً من الشائعات القاتلة.

- نعم، من الصعب يا سيدي أن يعرف الإنسان كيف تنشأ هذه الأشياء وتبدأ وجودها.

* * *

لم يذهب بوارو إلى منزل الدكتور أولدفيلد بل قصد إلى فندق عام، وفي صيحة يوم وصوله قابل جان مونكريف. كانت فتاة هيفاء نحيلة القد ذهبية الشعر زرقاء العينين تبدو على ملامحها اليقظة والانتباه، وقالت: لقد ذهب إليك الدكتور أولدفيلد كما علمت.

فقال بوارو: وأنت لم تستحسني ذلك؟

فالتقت عيناها بعينيه وقالت ببرود: ما الذي يمكنك أن تفعله؟

- توجد طريقة واحدة للكلام في هذا الموضوع.

- أية طريقة؟ هل تعني أنك ستحاول الذهاب إلى جميع عجائز القرية لترجوهن الكف عن ترويج هذه الشائعات لأنها تضر بالدكتور أولدفيلد؟ ربما يجبنك بأنهن لا يصدقن الحكاية ولكن سبب وفاة مدام أولدفيلد يدعو إلى الريبة، أو يقلن إنهن لا يتهمن الدكتور بسوء إلاّ لسبب واحد هو إهماله لزوجته واستخدامه لفتاة صغيرة.

قال بوارو: يخيل إليّ أنك تعرفين جيداً ما تلوكه الألسن؟

فضغطت شفتيها ثم قالت: نعم، أعرف كل شيء.

- وما هو الحل الذي ترينه لهذه المسألة؟

قالت جان مونكريف: الحل الوحيد هو أن يبيع عيادته ويرحل عن القرية.

- ألا تظنين أن الشائعات ستتبعه حيثما ذهب؟

فهزت كتفيها وقالت: يجب أن يقدر ذلك.

صمت بوارو قليلاً ثم قال: هل ستتزوجين الدكتور أولدفيلد؟

فلم تدهش لهذا السؤال وقالت: لم يطلب مني ذلك.

- لماذا؟

رنَت إليه بعينيها الزرقاوين وقالت: لأنني صدمته.

- من أكبر النعم أن يجد الإنسان شخصاً في صراحتك.

- سأكون صريحة معك أكثر مما ينبغي. حين علمت أن الناس أخذوا يشيعون أن الدكتور تخلص من امرأته ليقترن بي أدركت أن زواجنا سيحقق حدس الناس وتخمينهم، ولهذا رجوت الدكتور ألاّ يجري بيننا حديث عن الزواج لتموت الشائعات قبل أن تبيض وتفرخ.

- ولكن الشائعات لم تمت؟

- نعم.

سألها بوارو: هل تحبين الزواج بالدكتور؟

- نعم.

- إذن فقد كان موت امرأته مفيداً لك؟

قالت جان: لقد كانت مدام أولدفيلد سيدة بغيضة لا تسر من يعاشرها، ولا أكتمك أنني سررت لموتها.

قال بوارو: أنت صريحة أكثر من اللازم!

ابتسمت جان ابتسامة تمتزج بالاحتقار، وقال بوارو: لديّ اقتراح.

- نعم؟

- المسألة تحتاج إلى عمل سريع حاسم. أقترح أن يُقدَّم بلاغ من أي شخص (ولتكوني أنت مقدمة هذا البلاغ) إلى وزارة الداخلية.

- ماذا تعني بهذا الاقتراح الخطير؟

- أعني أننا نريد قطع دابر هذه الشائعات بطلب تشريح الجثة.

تراجعت الفتاة خطوة إلى الوراء وفغرت فاها، فقال بوارو: حسناً يا آنستي؟

قالت جان بهدوء: ولكني لا أوافقك.

- لماذا؟ إذا أثبت التشريح أن الوفاة طبيعية خرست الألسنة.

- هذا إذا أمكن الإثبات.

- هل تعلمين يا آنستي ماذا تعنين؟

فقالت جان في شيء من الاضطراب: إنني أفهم ما أقول، فأنت تظن أن الوفاة حدثت من تسمم بالزرنيخ، ولكن يوجد نوع آخر من السم لا يظهر أثره بعد مضي عام كالقلويات النباتية مثلاً، فإذا قال الأطباء بعد التشريح إنهم لم يهتدوا إلى سبب الوفاة فماذا تكون النتيجة؟ ستنطلق الألسنة من عقالها أكثر من ذي قبل.

صمت بوارو قليلاً ثم قال: من تظنين أطول الناس لساناً في هذه القرية؟

أخذت جان تفكر قليلاً ثم قالت: أظن أنها الآنسة ليتران السيدة العانس العجوز، فهي أخطر مروجة للشائعات.

- هل يمكنك أن تسهلي لي مقابلتها؟

- نعم، وخصوصاً في هذا الوقت من الصباح حيث تخرج نساء القرية لشراء حاجاتهن.

ولم يكن في الأمر أية صعوبة كما قالت جان. فقد وقفت فجأة أمام مكتب البريد وراحت تتكلم إلى سيدة طويلة حادة الأنف برّاقة العينين. قالت: طاب صباحك

يا آنسة ليتران.

- طاب صباحك يا جان، الجو صحو اليوم.

وأخذت السيدة تصوب عينيها الفاحصتين نحو الشخص المرافق لجان، فقالت هذه: أقدم إليك السيد بوارو، نزيل قريتنا لبضعة أيام.

* * *

سألته الآنسة ليتران ذات يوم -بدافع الفضول- عن سبب إقامته في القرية، فوجد بوارو أن الفرصة سانحة للكلام فقال: أعتقد أنك سيدة ماهرة يا آنسة ليتران لأنك استطعت أن تستنتجي السبب في وجودي هنا. لقد حضرت بناء على طلب وزارة الداخلية. ثم خفض صوته قائلاً: ولكن أرجوك ألاّ تبوحي بهذا السر لأي إنسان.

فقالت الآنسة ليتران: طبعاً، طبعاً. وزارة الداخلية، ولكنكم لا تقصدون السيدة أولدفيلد؟

فهزّ بوارو رأسه عدة مرات ثم قال: إن الموضوع خطير، وقد أمرتني الوزارة بالتحري عما إذا كانت المسألة تحتاج إلى إخراج الجثة لتشريحها.

فقالت الآنسة ليتران وهي منزعجة: يا للفظاعة! ستنبشون القبر لإخراج رفات بالية؟

- ما رأيك يا آنسة ليتران؟

- لقد لاكت الألسنة هذا الموضوع كثيراً يا سيد بوارو، ولكني لا أصدق كل ما يقال. غير أن موقف الدكتور أولدفيلد فريد في بابه ولا نستطيع أن نفسر أسباب حزنه، فلعله شعور بالذنب، وعلاقته مع زوجته لم يعرفها أحد، ولكن الممرضة هاريسون خدمت الآنسة أولدفيلد أربع سنوات وربما تعرف عنها الكثير، وهي وإن لم تكن قد خاضت في هذا الموضوع إلاّ أن الإنسان يستطيع أن يقرأ في ملامحها بعض الأسرار.

فقال بوارو في حزن وأسى: ولكننا لن نصل إلى كبد الحقيقة.

- لا شك أنكم إذا أخرجتم الجثة فستعرفون كل شيء.

- نعم، ستنكشف لنا الحقيقة.

- لقد مرت بكم قضايا مشابهة طبعاً، كقضية أرسيدونج وقضية ذلك الرجل الذي لا أذكر اسمه الآن وقضية كريبون وغيرها... ولكن جان مونكريف فتاة ظريفة طبعاً ولا أظن أنها قد دفعته إلى ارتكاب فعلته، ولكن الرجال يفقدون صوابهم حين يحبون، وطبعاً تكون النتيجة وبالاً على العاشق والمعشوق.

كان بوارو ملتزماً الصمت ويفكر في كيفية استخلاص أكبر قسط من حديث هذه المرأة ويسلي نفسه بإحصاء كلمة طبعاً التي تلازم حديثها. واستمرت تقول: وطبعاً يعرف الخدم كثيراً من أسرار البيوت، أليس كذلك؟ ومن

الصعب أن يمنعهم الإنسان من ترويج بعض الشائعات. وقد طُردت بياتريس عقب وفاة سيدتها، وهذه طبعاً غلطة أخرى ارتكبها الدكتور، خصوصاً في هذه الأيام التي يصعب فيها الحصول على خادمات. وقد زادت هذه المسألة شكوك الناس وظنونهم بأن طرد الفتاة قد حدث للتخلص منها.

فقال بوارو بهدوء: يخيل إليّ أن طريق البحث صار ممهداً.

فبدت على الآنسة ليتران علامات الندم وقالت: لكن الإنسان يشعر بالاضطراب من هذا الموضوع، فسوف تتناول الجرائد قريتنا الهادئة المطمئنة بالتجريح والتنديد.

- هل هذا يزعجك؟

- طبعاً، لأنني امرأة محافظة كما تعلم.

- ولكن المسألة لا تخرج عن كونها إشاعات باطلة، كما تقولين.

- ولكن إرضاءً لضميري أقول إنه يوجد فيها ظل من الحقيقة، ولا دخان من غير نار.

فقال بوارو: وأنا شخصياً كان يجول بخاطري هذا الظن.

ثم نهض واقفاً وقال للآنسة ليتران: هل يمكنني أن أثق في التزامك الكتمان يا آنسة؟

- أوه، طبعاً. لن أقول كلمة لأي مخلوق.

فاستأذن بوارو وهو يبتسم، ثم وقف عند الباب ليتناول معطفه وقبعته وقال: لقد نزلت بهذه القرية للتحري عن ظروف وفاة مدام أولدفيلد، وأكون شاكراً لو احتفظت بهذا النبأ سراً خاصاً لك.

- ولكن أرجو ألا تشركني في هذا الموضوع. بياتريس تعرف كل شيء وقد كانت تخدم في منزل الدكتور أولدفيلد عندما ماتت زوجته.

فقال بوارو بصوت أجش رصين: لعلها ظنت أن في الأمر جريمة؟

- نعم، وهي تقول أن الممرضة هاريسون كانت تشاركها في هذا الظن. وقد كان الود متصلاً بين الثلاث: الخادمة وسيدتها والممرضة، وكانت الأخيرة أول من قلب ظهر المجن للدكتور بسبب وفاة زوجته.

- أين الممرضة هاريسون الآن؟

- إنها تعمل عند السيدة بريستو العجوز داخل القرية.

* * *

لم يمض وقت قصير حتى كان بوارو جالساً أمام المرأة التي تعرف أكثر من غيرها الظروف التي أدت إلى

هذه الشائعات. كانت الآنسة هاريسون لا تزال على شيء من الجمال وإن لم تكن قد جاوزت الأربعين، في قسماتها دلائل الجد والرزانة وفي عينيها الداكنتين بريق الذكاء. وأخذت تصغي إليه بهدوء وانتباه ثم قالت: نعم، لقد سمعت تلك الشائعات التي تتناقلها الألسنة وحاولت أن أضع حداً لها ولكن بلا جدوى.

قال بوارو: ألا تظنين -يا آنسة هاريسون- أنه توجد أسباب ساعدت على انتشار هذه الشائعات؟

لاحظ بوارو أن شعورها بالأسى قد صار أكثر وضوحاً، ولكنها هزّت رأسها في دهشة وحيرة. فقال بوارو: ربما كان السبب هو عدم الانسجام بين الدكتور أولدفيلد وزوجته؟

قالت الآنسة هاريسون بعد تردد: كلا، كان الدكتور أولدفيلد محباً لزوجته عطوفاً عليها.

- هل كان يحبها كثيراً؟

فردت الآنسة هاريسون بعد تردد: كلا، أنا لم أقل ذلك، فإن مدام أولدفيلد كانت صعبة المراس وتريد من زوجها أن يقف كل وقته وجهده على العناية بها والسهر عليها، وهذه مطالب عسيرة يصعب تنفيذها.

قال بوارو: لعلك تقصدين أنها كانت تبالغ في مطالبها؟

- نعم، وربما كان السبب هو ضعف صحتها.

قال بوارو بحزن: ومع ذلك فقد ماتت.

- أوه، أعرف، أنا أعرف ذلك.

وبدا عليها الاضطراب، فقال بوارو: أنا متأكد من أنك تعرفين كيف بدأت هذه الشائعات.

فردت الآنسة هاريسون: نعم، أنا أعرف، وربما كان ذلك حدساً. أظن أن بياتريس هي أول من خلق هذه الشائعات وأعرف كيف نبتت في رأسها.

- نعم؟

- لقد سمعتُ ذات مرة الدكتور أولدفيلد يتحدث مع جان مونكريف، وأنا واثقة من أن بياتريس قد سمعت ذلك الحديث أيضاً.

- ماذا كان موضوع ذلك الحديث؟

صمتت الآنسة هاريسون لحظة تستجمع فيها أفكارها، ثم قالت: كان ذلك قبل وفاة مدام أولدفيلد بثلاثة أسابيع. وقد كنت صاعدة من الدور الأول، فوجدت الدكتور والآنسة جان في غرفة الطعام يتحدثان. وسمعت جانت تقول له: لقد طال علينا الأمد ولم أعد أطيق الصبر. فأجابها الدكتور: أقسم لك يا حبيبتي أن الوقت لم يطل. فقالت ثانية: لا أستطيع احتمال هذا الصبر المرير. هل تظن أن الأمور تسير سيراً مرضياً؟ فقال لها الدكتور: طبعاً، كل شيء يسير على ما يرام وثقي هذه المرة أننا سنتزوج بعد

عام على الأكثر.

وصمتت الآنسة هاريسون قليلاً ثم قالت: كان هذا الحادث هو أول ما سمعت، ومنه يتبين أنه لم يكن ثمة شيء بين الدكتور أولدفيلد والآنسة جان. وأنا أعرف طبعاً أنه كان معجباً بها وكانت بينهما آصرة مودة، ولكن الأمر لم يتعد ذلك. وسرعان ما عدت أدراجي عقب سماعي الحديث، ولكني لاحظت أن باب المطبخ كان مفتوحاً حيث كانت بياتريس تسترق السمع. ولعلك ترى معي أن الحديث كان عادياً جداً ومن الممكن تأويله -مع الأسف- بعقلية بياتريس بأن الدكتور والآنسة جان كانا يتآمران على قتل مدام أولدفيلد، مع أنني شخصياً فهمت أن الآنسة جان كانت متبرمة من طول مرض السيدة لأنه سيعطلها عن الاقتران بالدكتور أولدفيلد.

فنظر إليها بوارو نظرة فاحصة وقال: هل لديك أنباء أخرى، تريدين الإفضاء بها إليّ يا آنسة هاريسون؟

فردت في حدة: لا، لا، بالتأكيد... ماذا يمكن أن يكون؟

- لا أعرف، ولكن ربما توجد أشياء أخرى.

هزت رأسها سلباً فقال بوارو: من المحتمل أن تقرر وزارة الداخلية إخراج جثة مدام أولدفيلد لتشريحها.

قالت الآنسة هاريسون وهي منزعجة: لا، لا، إنه شيء

مؤلم حقاً.

- أتعتقدين ذلك؟

- أظن أن الأمر مخيف جداً وسوف يثير أقوالاً شتى، هذا فضلاً عن الانزعاج الذي سيسببه للدكتور أولدفيلد.

- ألا تظنين أن من الخير له أن يتم إخراج الجثة لتشريحها؟

- ماذا تعني؟

- أعني أنه إذا كان بريئاً فستصمت الآنسة وتموت الشائعات.

لاحظ بوارو أن أسارير الآنسة هاريسون قد انفرجت بعد عبوس، وتنهدت تنهيدة عميقة ثم قالت: لم تخطر ببالي هذه الفكرة، ولكنها الطريقة الوحيدة الواجب اتباعها.

وهنا سُمع صوت تصفيق مستمر، فقالت: إنها السيدة العجوز، السيدة بريستو. لقد استيقظت ويجب أن أذهب إليها لأهيئ لها وسائل الراحة قبل أن أعد لها الشاي ثم نخرج للنزهة. نعم، أظن أن فكرتك صائبة جداً يا سيد بوارو لأن الفحص سيخرس الآنسة ويقضي على الشائعات.

ثم شدت على يده بحرارة وخرجت من الغرفة.

وقصد بوارو إلى مركز البريد ليتحدث مع لندن بالتليفون، قال له محدثه في شيء من الحدة: أما زلت

تتحرى عن هذه القضية التافهة؟ هل تعتقد أنها من النوع الذي يجب أن نهتم به نحن رجال سكوتلانديارد؟ ألا تعلم أن الإشاعات الريفية كثيراً ما تتمخض عن لا شيء؟

قال بوارو: ولكن هذه القضية خاصة.

- حسناً، ولكنك تتعب نفسك أكثر مما ينبغي. أما إذا كانت القضية مجرد وهم فلن نستريح لك.

- ولكني سأكون أول من يستريح إلى النتيجة.

- ماذا تقول؟ إنني لا أسمع.

- لا شيء، لا شيء.

ثم وضع السماعة وخرج من غرفة التليفون وتوجه نحو الموظفين، فسأل موظفة مركز البريد وهو يدفع لها أجر المكالمة: هل يمكنك يا سيدتي أن تخبريني عن عنوان خادمة الدكتور أولدفيلد السابقة المدعوة بياتريس؟

- بياتريس كنج. لقد اشتغلت منذ خروجها من منزل الطبيب في بيتين آخرهما هو منزل الآنسة مارلي فوق البنك.

شكرها بوارو، ثم اشترى بطاقتَي بريد ودفتر طوابع، وحاول أثناء ذلك أن يثير موضوع وفاة السيدة أولدفيلد ولكنه رأى فجأة ما ارتسم على محيا موظفة المكتب من دهشة وقالت: يا للمصادفة العجيبة! ها هي ضالتك

المنشودة التي خلقت جميع الشائعات التي سمعتها.

ثم برقت عيناها قليلاً وتهللت أساريرها وعادت تقول: ألست تريد مقابلة بياتريس كنج لهذا السبب الذي ذكرت؟ ها هي قد حضرت في الوقت المناسب.

كانت بياتريس فتاة صغيرة القامة يدل مظهرها على المكر، لكن من يراها لأول وهلة يعتقد أنها غبية لولا عيناها وما تنمان عنه من خبث ودهاء يخيبان رجاء من يحاول الحصول منها على أية معلومات.

قالت بياتريس: لا أعرف شيئاً على الإطلاق ولست مسؤولة عما تتناقله الألسنة، ولا أعرف قصدك عن سماع حديث الدكتور أولدفيلد والآنسة جان. لست من هؤلاء اللاتي يسترقن السمع ويُجدن الإنصات إلى حديث الآخرين، وليس من حقك أن تقول عني إنني كذلك فأنا لا أعرف شيئاً أبداً.

قال بوارو: ألم تسمعي أبداً شيئاً عن التسمم بالزرنيخ؟

فتهللت أسارير الفتاة وقالت: نعم، لعله الذي كان موضوعاً في زجاجة الدواء.

- أية زجاجة دواء؟

فردت بياتريس: إحدى زجاجات الدواء التي كانت تجهزها الآنسة جان. كانت تذوقها وتشمها ثم تعود فتصبها

في البالوعة وتملؤها من صنبور الماء وتضيف إليها شيئاً آخر فلا يتغير المزيج عن لون الماء، وذات مرة قدمت للسيدة قدحاً من الشاي فشعرت تغييراً في طعمه، فزعمت الآنسة أن الشاي لم يصنع بالماء المغلي. هذا ما شهدته بعيني، وربما توجد أشياء خفيت عليّ.

فهزّ بوارو رأسه وقال: هل تحبين الآنسة جان يا بياتريس؟

- لا يعنيني أمرها على كل حال، فقد كانت تحب الطبيب وكان يكفي أن ترى نظراتها إليه كي تدرك أنها تحبه.

فهزّ بوارو رأسه مرة أخرى، ثم عاد إلى الفندق ليصدر تعليماته إلى خادمه الخاص جورج.

* * *

فرك الدكتور آلان جارسيا، الطبيب الشرعي، يديه ورمق بوارو بنظرة خاطفة، ثم قال: أظن أن النتيجة مؤيدة لوجهة نظرك الصائبة.

قال بوارو: أنت تحسن الظن بي إلى حد بعيد.

- ما الذي أوحى إليك بذلك؟ الشائعات طبعاً.

- كما تقول بالضبط، لأن الشائعات تعطينا صورة واضحة لما تتناقله الألسنة.

وفي اليوم التالي استقل بوارو القطار إلى لوجبرو فوجدها هائجة كخلية النحل. لم يكن لأهلها حديث سوى نبش قبر مدام أولدفيلد وإخراج جثتها للتشريح. وبعد أن رغ بوارو من طعامه بالفندق قيل له إن سيدة في انتظاره. كانت تلك السيدة هي الممرضة هاريسون، وقد دخلت عليه شاحبة اللون متجهمة المحيا وسألته: هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح يا سيد بوارو؟

وبعد أن جلست قال لها بوارو: نعم، لقد ثبت من التشريح وجود كمية كبيرة من الزرنيخ.

فصاحت الآنسة هاريسون: لا أظن... لا أظن أبداً.

ثم انفجرت باكية، فقال بوارو بلطف: لا بد للحق أن يظهر كما تعلمين.

- هل سيشنقونه؟

- لا نزال نحتاج إلى أدلة قوية.

- لماذا لا تفرض أنه براء من هذه التهمة؟

فهز بوارو كتفه وقال: في هذه الحالة سيهجره زبائنه.

فقالت الآنسة هاريسون ببطء: كان ينبغي أن أخبرك منذ أول الأمر، ولكني لم أظن أن في المسألة جريمة.

قال بوارو: لكني كنت أجزم بذلك، وأرجو أن تخبريني بما تعلمين.

- كنت ذاهبة ذات مرة إلى الصيدلية فرأيت الآنسة جان تعمل شيئاً غريباً.

- نعم؟

- كانت واقفة بجوار خزانة العقاقير السامة وبيدها زجاجة أخذتها منها وراحت تصب قليلاً منها في علبتها الصغيرة، ولكنها بمجرد أن رأتني وضعت العلبة في حقيبتها، ثم أسرعت فوضعت الزجاجة في الخزانة حتى إنني لم أستطع التحقق من نوعها. ولم أتمكن من إدراك مغزى تلك الحركة إلاّ الآن عندما علمت أن مدام أولدفيلد ماتت مسمومة.

وعندما فرغت الآنسة هاريسون من حديثها قال لها بوارو: أستميحك عذراً يا سيدتي...

ثم توجه لطلب مفتش شرطة يوركشير بالتليفون، وعاد ثانية وبقيا صامتين لحظة. كان بوارو يطيل النظر إلى الآنسة ويصغي إليها وهي تتحدث بصوت خافت: كانت جان تخشى نتيجة هذا التشريح، ولكن الحقيقة ظلت ثابتة رغم كل شيء. إنها فتاة حمقاء، أحبت شخصاً كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة. وكان يمكن للزوجة أن تعيش طويلاً رغم مرضها العضال.

تنهد بوارو، فقالت الآنسة هاريسون: فيمَ تفكر؟

- أفكر في هذه المأساة.

فردت الآنسة هاريسون: لا أظن أبداً أن الدكتور كان يعرف شيئاً عن هذه الجريمة.

قال بوارو: نعم، وأنا متأكد من ذلك أيضاً.

وهنا فُتح الباب ودخل رجل الشرطة السري، السيرجنت كراي، يحمل في يده شيئاً ملفوفاً في منديل حريري، وكان ذلك الشيء علبة صغيرة. فقالت الآنسة هاريسون: لقد رأيت هذه العلبة ذات مرة.

قال السيرجنت كراي: عثرت بها في درج المكتب الخاص بالآنسة جان مونكريف ملفوفة في منديل، ولم يظهر بها أثر للبصمات.

وفتح العلبة وهو لا يزال يمسكها بالمنديل، ثم نظر إلى ما بداخلها وقال: أليس هذا مسحوقاً للوجه؟

وغمس فيه إصبعه ثم ذاقه بطرف لسانه وقال: طعمه عادي.

فقال بوارو: ليس للزرنيخ الأبيض أي طعم.

قال السيرجنت كراي: سنقوم بتحليله حالاً. ثم التفت إلى الآنسة هاريسون وقال: هل تقسمين أن هذه هي العلبة التي رأيتها؟

- نعم، أقسم أن هذه هي العلبة التي رأيتها مع الآنسة جان مونكريف في الصيدلية قبل وفاة مدام أولدفيلد بأسبوع تقريباً.

فتنهد السيرجنت كراي. ودق بوارو الجرس فجاءه الخادم وقال له: أرجو أن ترسل إليّ جورج.

دخل جورج وهو ينظر إلى سيده نظرة استفهام، فقال بوارو: لقد عرفتِ علبة المسحوق يا آنسة هاريسون وقلتِ إنها كانت مع الآنسة جان منذ عام، ولكنك ستدهشين إذا علمت أن هذه العلبة قد اشتريت من محل ولورث منذ بضعة أسابيع وأنها من طراز لم يبدأ إنتاجه إلا منذ ثلاثة شهور.

لم تحر الآنسة هاريسون جواباً ونظرت إلى بوارو بعينين داكنتين، فقال: هل رأيت هذه العلبة من قبل يا جورج؟

فتقدم الخادم خطوة إلى الأمام وقال: نعم يا سيدي، فقد راقبت هذه السيدة وهي تشتريها من محل ولورث يوم الجمعة ١٨ الجاري، ثم اقتفيت أثرها حسب إرشاداتك فاستقلت الحافلة إلى دارننجتون حيث منزل الآنسة جان مونكريف، وسرت وراءها حتى دخلت المنزل فرأيتها تدخل غرفة النوم وتخبئ هذه العلبة في درج المكتب، ثم تركت المنزل وهي تعتقد أنها بمنجى من الرقابة. ويمكنني أن أقول إنهم لا يغلقون أبوابهم في هذه القرية. وكان الوقت حينذاك في الغسق.

قال بوارو للآنسة هاريسون: هل يمكنك دحض هذه الحقائق؟ لا أظن. لم يكن في العلبة زرنيخ عندما اشتريتها من محل ولورث وإنما وُضع فيها الزرنيخ في منزل الآنسة بريستو.

ثم قال بصوت ثاقب: ليس من الحكمة أن تحتفظي بهذه الكمية من الزرنيخ.

فدفنت الآنسة هاريسون وجهها بين يديها وقالت بصوت خافت: نعم، لقد قتلتها! لقد قتلتها، وبلا فائدة. لقد كنت مجنونة آثمة.

* * *

قالت جان منكريف: أرجو أن تغفر لي يا سيد بوارو فقد كنت غاضبة منك، وكان يلوح لي أن جميع تصرفاتك تزيد الموقف سوءاً.

فقال بوارو وهو يبتسم: لم يكن لي مفر من البدء بتلك الطريقة. هكذا كانت تقول الأساطير، بأنه كلما قطعت رأساً من رؤوس الأفعى نبت في مكانه رأسان، ولهذا رأينا الشائعات تنمو وتتضخم، فكان من واجبي أن أصل إلى الرأس الأول، إلى مصدر هذه الشائعات، وبعد وقت قصير اكتشفت أنها كانت الآنسة هاريسون. توجهت لأراها، فظهر لي أنها امرأة لطيفة ذكية، ولكنها أخطأت حين ذكرت لي أنها سمعت حكاية حديثك مع الطبيب، وقد كانت حكاية مختلفة. فلو كنتما حقيقة تتآمران على قتل السيدة فإنكما من الذكاء بحيث لا تتآمران في غرفة مفتوحة الأبواب وبجواركما الخادمة والممرضة تروحان وتجيئان، كما أن الكلمات التي عزيت إليك لا تصدر من فتاة في مثل سنك وإنما هي كلمات امرأة كبيرة مثل الآنسة هاريسون التي يصح

أن تقولها في مثل هذه الظروف. وهنا وضحت لي الحقيقة، فلا تزال الآنسة هاريسون على جانب من الجمال، وقد خالطت الدكتور أولدفيلد ثلاث سنوات كانت في خلالها موضع تقديره لعنايتها وعطفها على زوجته حتى اعتقدت أنه سيطلب يدها بعد وفاتها، ولكن خاب ظنها حينما علمت أنه قد بدأ يحبك، فراحت تروج الإشاعات بأن الطبيب سمم زوجته.

وتوقف بوارو قليلاً ثم قال: لقد دهشت حقاً لقيام الآنسة هاريسون بما هو أخطر من هذه الشائعات، فقد لفت نظري بعض ما ورد في حديثها. أخبرتني ذات مرة أن مرض مدام أولدفيلد كان معظمه وهماً وأنها لم تكن تعاني منه كثيراً، ولكن الطبيب لم يشكّ في أنها كانت حقاً مريضة فلم تذهله وفاتها، وقد استدعى قبيل وفاتها أحد زملائه الأطباء ثم استدعى زميلاً آخر فكان قرارهما أن الحالة خطيرة جداً. وعندما عرضت عليها فكرة تشريح الجثة خافت أولاً، ولكن رغبتها في الكيد والانتقام دفعتها إلى تشجيعي لاعتقادها بأن أحداً لن يرتاب فيها وأن أصابع الاتهام ستشير حتماً إلى الطبيب وإليك، ولم يبق هناك سوى أمل واحد هو أن تقدم الآنسة هاريسون على عمل طائش لإلصاق التهمة بك، ولذلك أمرت جورج بمراقبتها.

قالت جان مونكريف: إنك لمدهش حقاً.

وقال الدكتور أولدفيلد: إني عاجز عن شكرك، فكم كنتُ غبياً!

قال بوارو: وهل كنت أنت غبية كذلك يا آنسة؟

قالت جان: كنت في شدة الخوف والاضطراب، فقد عثرت على الزرنيخ في الخزانة فعلاً.

فصاح الدكتور أولدفيلد: جان، ألم تظني...؟

- لا، لم أشتبه بك، وإنما ظننت أن مدام أولدفيلد قد اشترت الزرنيخ لتأخذ منه قليلاً فتشتد عليها الأوجاع لتستدر عنايتك بها وعطفك عليها، وأنها أخطأت في النهاية وتناولت كمية أكبر. وكنت أخشى أن يكشف التشريح عن وجود أثر للسم بالجثة فتصبح النتيجة وبالاً علينا، ولهذا لم يرد على لساني قط أي ذكر للزرنيخ. والمدهش أيضاً في هذه المسألة أنه لم ترد على خاطري أبداً أي فكرة عن الآنسة هاريسون، فهي آخر من أشتبه فيه.

قال الدكتور أولدفيلد: وأنا أيضاً، لأنها امرأة اكتملت فيها صفات الأنوثة الرحيمة.

فقال بوارو بحزن: نعم، ربما كانت صفاتها تؤهلها لتكون زوجة وفية وأماً رحيمة، ولكنها وقعت تحت تأثير دوافع لم تستطع مقاومتها. وهذا أمر يبعث على الأسف.

ثم نظر مبتسماً إلى الرجل الكهل وإلى الفتاة التي تفيض رقة وشباباً وقال لنفسه: لقد أثمرت جهودي وكانت نعمة وبركة على هذين الشخصين.

* * *

مغامرة في الأعالي

بعد أن انتهى بوارو من عمله في سويسرا حاكت في صدره رغبة قوية لزيارة بعض المعالم التي لم يرها، فقضى يومين في شامونيكس ويوماً في مونترو، ثم ذهب إلى ألدرمات التي كان أصدقاؤه يسرفون في مدحها.

وجدها تقع في نهاية وادٍ سحيق تحيط به جبال تكللها الثلوج فشعر فيها بانقباض شديد، ولم يجد مندوحة من الرحيل فوراً. صعد به القطار إلى ليزافين ثم كاروشيت، وبعد ذلك إلى روشتنج التي تقع على ارتفاع عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر. لم يظن بوارو أن الرحيل سيصل به إلى هذا المرتقى البعيد، وبينما هو في القطار مر به المفتش وأشّر على تذكرته وأعادها إليه، فوجد معها ورقة صغيرة مكتوبة بالقلم الرصاص، فقرأ فيها ما يلي:

لن أخطئ هذا الشارب. أحييك أيها الزميل العزيز، وأرجو أن تساعدني في مهمة تعجبك إذا لم تمانع. لعلك قرأت شيئاً عن جريمة سالي؟ السفاح ماراسود سيلتقي مع أفراد عصابته في روشتنج، فأرجو أن تكون متيقظاً يا صديقي. اتصل بالمفتش دراوث فإنه رجل معقول، وإن لم يبلغ حد عبقريتك. يجب أن تبذل أقصى الجهود للقبض على السفاح الخطير ماراسود. لا أستطيع التحدث إليك في ألدرمات لأن عيون ذلك

السفاح تراقبني في كل مكان، ولكنك أكثر مني حرية إذ يحسبونك سائحاً.

صديقك ليمنثيل.

وما إن انتهى من القراءة حتى فتل شاربه الذي يميزه عن سائر الرجال، فقد سبق أن طالع في الصحف عن جريمة سالي. طالع نبأ ذلك السفاح الذي قتل ذلك الناشر الباريسي، فقد عرفت أوصاف القاتل وثبت أنه عضو في عصابة خطيرة، وقد اشتُبه في اشتراكه في كثير من الجرائم، ولكن التهمة هذه المرة ثابتة عليه. ولكنه هرب من فرنسا، والشرطة تبحث عنه في كل مكان من القارة الأوروبية، ويبدو الآن أنه على موعد مع عصابته في روشتنج.

هزّ بوارو رأسه قليلاً ولاحت عليه الحيرة، لأن روشتنج في منطقة لا تتصل بالعالم إلاّ بخط حديدي صغير ولا يفتح فندقها إلاّ ابتداء من يونيو حتى أغسطس ثم تصبح طول العام قاعاً صفصفاً، فاجتماع العصابة في هذه البقعة المهجورة مما يثير المخاوف. ولكن ضابط الشرطة السري رجل عاقل صادق فيما كتبه. إذن فلا بد أن يكون هناك أمر حدا بماراسود إلى الاجتماع بعصابته في ذلك المكان النائي.

تنهد بوارو، إذ لم يدر بخلده أن مثل هذه المهمة الخطرة، مهمة القبض على ذلك الدب البري، كانت تنتظره في وقت ينشد فيه الراحة.

كان الرجل الجالس أمامه في القطار سائحاً أمريكياً، يبدو من هيئته أنه من إحدى البلدان الأمريكية الصغيرة ويزور أوروبا للمرة الأولى. ولم تخطئ فراسة بوارو حينما تحدث إلى جاره.

وفي الجانب الآخر من العربة كان يجلس رجل وخط الشيب شعر رأسه، طويل القامة كبير الأنف معقوفه، يقرأ في كتاب باللغة الألمانية ويبدو من شكل أصابعه أنه موسيقي أو جراح.

وفي ناحية أخرى كان يجلس ثلاثة رجال لا يختلفون كثيراً في هيئتهم، وكانوا يلعبون الورق، فدخل شخص وتداول وإياهم المكسب والخسارة. ولم يبدُ على أولئك الثلاثة ما يدعو إلى الغرابة سوى زيهم الذي لا يلائم إلاّ حلبة السباق.

وهناك في جانب آخر كانت تجلس امرأة طويلة سمراء جميلة المحيا غامضة الملامح رغم وسامتها، لا تنظر إلى أحد لأن عينيها كانتا متجهتين دائماً إلى الوادي.

بدأ الرجل الأمريكي يتكلم، فعرف بوارو أن اسمه شوارتز وأن المناظر الأوروبية البديعة أعجبته كثيراً. وعندما وقف القطار عند محطة كاروشيت لم يغادره أحد من الركاب، فجميعهم ذاهبون إذن إلى روشتنج.

وصرح السيد شوارتز أنه يحب دائماً أن يصعد إلى القمم العالية، وليست عشرة آلاف قدم بالشيء السهل

الميسور. وأراد السيد شوارتز أن يجتذب إلى حديثه جاره الآخر، ولكنه لم يزد على أن رفع حاجبيه من تحت نظارته والتفت إليه ببرود ثم عاد يقرأ في كتابه ثانية. ولم يهتم شوارتز ببرود جاره الألماني. ثم توجه إلى السيدة يرجوها أن تجلس مكانه لأنه أكثر ملاءمة لها إذا كانت تنشد المناظر الجميلة، فلم يبد عليها أنها تفهم الإنجليزية فهزت كتفيها ورفعت ياقة معطفها المصنوع من الفراء. وقال السيد شوارتز لبوارو: من الخطأ أن تسافر السيدة بمفردها من غير أن يصحبها شخص يعنى بها.

وافقه بوارو على ما قال، أما الرجل فقد تنهد ولزم الصمت.

* * *

إنه لمما يثير الدهشة والضحك معاً أن يرى الإنسان مدير الفندق في ذلك المكان النائي البعيد عن العالم مرتدياً ثيابه الرسمية لا يتخلى عنها لحظة واحدة، وكان علاوة على قيوده الرسمية بديناً وسيماً.

لاحظ بوارو أن المدير لم يكن في حالته الطبيعية حين أقبل عليه فجأة هؤلاء الضيوف، ورغم محاولته إخفاء اضطرابه بالاعتذار عن قلة استعداد الفندق، فإن بوارو قد فطن إلى وجود شيء غير طبيعي دفعه إلى الاضطراب.

أعدّت موائد الطعام في غرفة طويلة، وكان جوستاف الخادم المكلف بهذه العملية شاباً نشيطاً، فأخذ يمر

بالضيوف ومعه قوائم الشراب بينما جلس الفرسان الثلاثة سوياً يضحكون ويتكلمون بصوت عالٍ بالفرنسية، وجلست السيدة الوسيمة وحيدة دون أن تنظر إلى أحد.

وجلس بوارو بمفرده كذلك، فجاءه مدير الفندق يقول: أرجو ألا تكون متضايقاً يا سيدي لخلو الفندق من الناس، فالموسم لم يبدأ بعد. وتلك السيدة الجالسة هناك تزور الفندق في هذا الموعد من كل عام. لقد مات زوجها بينما كانا ينزلقان على الجليد منذ ثلاثة أعوام، وهي تقوم بهذه الزيارة السنوية وفاء لذكرى زوجها الراحل. أما السيد الجالس هناك فهو طبيب مشهور من فينّا يدعى الدكتور كارل لوتز، وهو يحضر أيضاً للراحة والاستجمام.

فقال بوارو: إنه مكان هادئ ومريح حقاً، وهؤلاء الفرسان الثلاثة هل جاؤوا للاستجمام أيضاً؟

فهزّ المدير كتفيه ولاحت في عينيه علامات الاضطراب: آه، هؤلاء؟ إنهم يأتون للقيام بمحاولات جديدة في الصعود إلى أماكن أكثر ارتفاعاً.

ولكن هذا الجواب لم يقنع بوارو بعد أن لاحظ ارتباك الرجل واضطرابه.

وحضر السائح الأمريكي، السيد شوارتز، فتهلل بشراً حين رأى بوارو وسأله: كنت أتحدث مع ذلك الطبيب وفهمت منه أنه أخصائي في الأمراض العصبية والتحليل النفسي، وهو ألماني طرده النازيون من وطنه.

ثم اتجهت عيناه إلى السيدة وقال بصوت خافت: لقد أخبرني الخادم عن اسمها وهو مدام جراندير، مات زوجها وهو ينزلق فوق الجليد. إنني أشعر نحوها بعطف شديد، وأظن أنه يحسن بنا أن نسري عنها.

فقال بوارو: لو كنت مكانك لما حاولت ذلك.

ولكن سيد شوارتز لم ينثنِ عن عزمه، فذهب إلى حيث كانت السيدة ووقف إلى جوارهَا وهي تفوقه طولاً وراح ينظر معها من النافذة إلى الوادي السحيق. ولما أرادت الجلوس وجدته واقفاً بجوارها، فنظرت إليه ببرود وأولته ظهرها.

ولم يسمع ما قالته له لأنه عاد إلى بوارو يقول: أظنني قد أرضيت ضميري، أظن أن روح المحبة والوئام يجب أن تسود العالم أجمع، ولهذا تجدني قد أحببتك قبل أن أعرف اسمك.

فقال بوارو: اسمي بواريير، وأنا تاجر حرير في ليون.

- يسرني أن أقدم إليك بطاقتي يا سيد بواريير، ولو تفضلت بزيارتي في وفنتينسبرج فسأرحب بك كثيراً.

فأخذ بوارو البطاقة، ثم وضع يده في جيبه وأجاب: أنا آسف لأنني لا أحمل بطاقاتي الآن.

وأقبل المساء فذهب بوارو إلى فراشه، ولكنه قبل أن ينام قرأ خطاب ليمنتيل ثانياً، وقال في نفسه: إنه مدهش فعلاً، ترى لو...

* * *

أحضر جوستاف طعام الإفطار والقهوة إلى بوارو وقال له: معذرة يا سيدي إذا وجدت القهوة غير ناضجة تماماً لأن المياه تغلي بسرعة في هذا المكان المرتفع.

فقال بوارو: يجب أن تخضع لحكم الطبيعة.

فأجاب جوستاف: يبدو أن سيدي فيلسوف.

وقصد إلى الباب. ولكنه، بدلاً من أن يخرج، انثنى بسرعة ونظر من النافذة وقال بصوت خافت: أنا دوريه، مفتش الشرطة.

- آه، لقد توقعت هذا.

فقال دوريه بصوت خافت: لقد وقع حادث خطير للقطار.

- حادث؟ ما هو؟

فقال دوريه: لم يصب أحد بسوء، لكن حدث انهيار ثلجي بسيط على الطريق ومن العسير أن يتم الإصلاح بسرعة في هذا الوقت الذي لم يبدأ فيه الموسم بعد، وستكون النتيجة طبعاً أننا سوف نمكث هنا معزولين عن العالم بضعة أيام.

فقال بوارو: شيء جميل جداً.

فهزّ المفتش رأسه وقال: لقد كانت معلومات المفتش صحيحة حين قال إن اجتماع ماراسود بعصابته كائن في هذا

المكان، ويظهر أنه دبر الأمر بحيث لا يحصل ما يعرقل الاجتماع.

فقال بوارو: ولكن هذا محض وهم وخيال.

- هذا حقيقي يا سيد بوارو، لأن ماراسود شخص عجيب حقاً وفي اعتقادي أنه مجنون.

فقال بوارو: مجنون وقاتل.

- ليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة على ما أظن؟

- إذا كان اجتماع ماراسود بعصابته سيحصل هنا فلا بد أنه موجود معنا الآن ما دامت المواصلات قد قطعت.

- أنا أعلم ذلك.

وسادت لحظة من الصمت بددها بوارو بقوله: أفلا يكون الدكتور لوتز هو ماراسود؟

فهزّ المفتش رأسه وأجاب: لا أظن ذلك، لأن الدكتور لوتز طبيب مشهور، وقد رأيت صورته في الجرائد وهي تشبه النزيل الذي يحمل اسمه.

- إذا كان ماراسود بارعاً في التخفي فلا يستبعد أن يكون قد لعب هذا الدور وأطلق على نفسه هذا الدور وهذه الصفة.

- هذا صحيح، ولكني لم أسمع عنه أنه يتقن التخفي

لأنه ليس كالأفاعي، وإنما هو كالدببة المتوحشة، يهجم على فريسته في جرأة وعنف.

فقال بوارو: وما الذي يعوق الدب أن يكون أفعى إذا أراد؟

- لا شيء طبعاً، خصوصاً وأنه هارب من وجه العدالة، فلا بد له من التخفي.

- أعندك أوصافه؟

فهزّ دوريه كتفيه وقال: لقد وصلتني صورته اليوم فعرفت أنه في الثلاثين من عمره، قصير القامة أسمر الوجه، وليست به مميزات ظاهرة.

هزّ بوارو رأسه وتمتم: هذا الوصف ينطبق على أي شخص! وما رأيك في الرجل الأمريكي شوارتز؟

- كنت على وشك أن أسألك عنه لأنك تحدثت إليه، وقد عاشرتَ على ما أظن كثيراً من الإنجليز والأمريكيين. يبدو من النظرة الأولى أنه سائح عادي وجواز سفره صحيح، ولكن أليس من الغريب أن يختار هذا المكان النائي لسياحته؟ ولكن أليس الأمريكيون على كل حال لا يقيمون وزناً لنفقات الأسفار، فما رأيك الشخصي فيه؟

فهزّ بوارو رأسه في حيرة وأجاب: يخيل إليّ أنه رجل سليم النية صافي القلب يحب الناس ولا شبهة فيه. ولكن ما رأيك في أولئك الفرسان الثلاثة؟

فتجهم وجه دوريه وهزّ رأسه وقال: نعم، أقسم لك أنني قد اشتبهت في أمرهم، وأعتقد أنهم أفراد العصابة المنشودة وأن بينهم ماراسود المطلوب.

وبعد أن استعرض بوارو في ذهنه وجوههم المختلفة أخذ يقول لنفسه: "يحتمل أن يكون ماراسود معهم. ولكن لماذا يعرّض نفسه لهذه المخاطرة، بينما يكن تدبير الاجتماع في مكان أوفر أماناً من هذه البقعة النائية؟". وأخيراً قال: ولكن لماذا يكابدون مشقة هذا السفر المضني من أجل اجتماع؟

- هناك احتمال آخر، وهو أن هؤلاء الفرسان الثلاثة من عصابة ماراسود وقد جاؤوا ليقابلوه، ولكن أين ماراسود نفسه؟

- ماذا تعرف عن المشرفين على هذا الفندق؟

فهزّ دوريه كتفه وقال: لا يوجد سوى طاهية عجوز وزوجها جاك الشيخ والخادم الذي حللت في مكانه.

فقال بوارو: المدير يعرف طبعاً من أنت؟

- طبعاً، فهو الذي ساعدني في مهمتي.

- ألم يدهشك اضطرابه؟

- ربما يكون قد ساوره الاضطراب لاشتراكه في أعمال الشرطة؟

- هذا طبيعي.

- ولكني أفكر فيما هو أبعد من ذلك، من الضروري أن يكون الرجل على علم بشيء.

- إذن فمن صالحنا ألا ندعه يعرف شيئاً عن اشتباهنا في أمره ولنراقبه من بعيد.

فهزّ المفتش رأسه واتجه نحو الباب وقال: هل من تعليمات أخرى يا سيد بوارو.

فقال بوارو: لا يهمني الآن سوى شيء واحد، هو معرفة السبب في اتخاذ هذا الفندق بالذات لاجتماع العصابة.

- السبب هو النقود. لقد قتلوا سالي المسكين وسلبوه نقوده، وكانت النقود مبلغاً ضخماً.

- إذن فالاجتماع قد دُبِّر لاقتسام الغنيمة؟

- نعم، المسألة واضحة.

فهزّ بوارو رأسه كأنه لم يقتنع بهذا الاستنتاج وقال: ولماذا يجتمعون في هذا المكان الذي لا يصلح إلاّ لمقابلة رومانسية.

قال المفتش: هل تظن أن...؟

فأجاب بوارو: أظن أنها مدام جراندير، وهي امرأة فاتنة، تستطيع حين تشاء أن تحمل الرجال إلى أن يصعدوا

من أجلها عشرة آلاف قدم.

فرد المفتش: لم يداخلني أقل شك في أمر هذه السيدة، وهي تتردد على هذا المكان منذ بضع سنين.

- ولهذا اتخذوا من وجودها ذريعة لدفع الشبهة عنهم فاختاروا روشتنج.

- سأبحث وجهة نظرك هذه يا سيد بوارو.

* * *

مضى النهار عادياً لم يحدث فيه شيء، وجلس بوارو مع الدكتور لوتز يجاذبه الحديث. علم منه أنه أخصائي في الأمراض النفسية ولا يستطيع أن يتبسط في الحديث عن مهنته مع الهواة، ثم انتحى ركناً يقرأ في كتاب ألماني ويلخص منه بعض الفقرات.

وتوجه بوارو إلى المطبخ حيث كانت تعمل الطاهية العجوز وزوجها، فقالت له إنه توجد كمية وافرة من الطعام المحفوظ، ولكن ما هي القيمة الغذائية لهذا الطعام؟ ولقد كانت العناية الإلهية رحيمة بالبشر إذ لم تجعل كل غذائهم طعاماً محفوظاً.

وتناول حديثهم أموراً شتى، ثم سأل بوارو: أين الخادم الذي كان هنا قبل أن يحضر جوستاف؟

- نعم، كان خادماً طيباً لكنه خامل غير متمرن.

- هل مكث هنا طويلاً قبل أن يحتل جوستاف مكانه؟

- أياماً قليلة.

- ألم يشكُ من هذا التصرف؟

- كلا، لقد ذهب بكل هدوء لأن زبائن هذا الفندق من الطبقات الراقية ويحتاجون إلى خدم مهرة.

- إلى أين ذهب؟

فهزت المرأة كتفيها وأجابت: إذا كنت تعني روبرت فإنه قد عاد إلى المقهى الذي جاء منه.

- إذن فقد عاد بالقطار؟

فنظرت إليه المرأة مندهشة وقالت: طبعاً، وبأي طريقة أخرى يعود؟

فقال بوارو: هل رآه أحد عند رحيله؟

فحملق فيه الزوجان العجوزان وقالت المرأة: هل تريد أن يترك الإنسان عمله ويذهب لوداع هذا الحيوان؟

فهزّ بوارو رأسه موافقاً على اعتراض المرأة. ثم انطلق يتفقد هذا الفندق الفخم الذي لم يفتح فيه غير الجناح الذي يشغله الضيوف، أما باقي الغرف فقد كانت مغلقة لا حركة فيها. ورأى في أحد الأركان الفرسان الثلاثة يلعبون الورق

فنظر إليه أحدهم بعينين شاحبتين ووجه حجري، فمر به بوارو في صمت حتى لقي أمامه السيدة الفاتنة، مدام جراندير. فأسرع نحوها وسألها قائلاً: هل كانت حادثة القطار خطيرة؟ أرجو ألا تكون قد أزعجتك.

فقالت السيدة: لم أهتم بها كثيراً.

ثم سارت في طريقها دون أن تعيره التفاتاً.

* * *

أوى بوارو إلى فراشه مبكراً ونام ملء جفنيه، ولكنه استيقظ فجأة عند منتصف الليل على إثر فتح الباب عنوة وإضاءة النور. وجد أمامه الفرسان الثلاثة تفوح من أفواههم رائحة الشراب وهم يسبون ويلعنون، وتقدموا منه وبأيديهم أمواس براقة وصاح أحدهم: سنسلخ جلدك أيها الشرطي القذر.

وفي هذه اللحظة هجم عليهم شوارتز فجأة مصوباً نحوهم مسدسه آمراً إياهم بالخروج وإلاّ أرداهم قتلى، فرفع الثلاثة أيديهم وأسرع بوارو يفتش جيوبهم ليتأكد من خلوها من السلاح. وقال لهم شوارتز: والآن هلموا إلى الخزانة في الممر.

وبعد أن أدخلهم الخزانة وأغلق بابها بالمفتاح التفت إلى بوارو وعليه دلائل الغبطة والارتياح وقال: كيف كان يصبح مصيرنا لولا هذا المسدس؟ لقد سخر مني أقاربي في

فونتينسبرنج لأخذه معي في رحلتي قائلين: هل ستذهب إلى غابات أفريقيا؟! فلو أنهم كانوا معنا في هذه اللحظة لهنؤوني على صواب فكرتي.

قال بوارو: لقد ظهرت يا صديقي شوارتز في الوقت المناسب وأنقذتني من الموت، فأنا مدين لك بحياتي.

- هذه مسألة بسيطة، والمهم أن نفكر في طريقة لتسليمهم إلى الشرطة. فهيا بنا نتشاور في الأمر مع المدير.

- يحسن أن نتحدث أولاً مع جوستاف. آه، آسف... بل المفتش دوريه، فما جوستاف في الحقيقة إلاّ مفتش شرطة.

فحملق فيه شوارتز وقال: ولهذا السبب ارتكبوا جرائمهم؟

- ماذا تقول؟

- لقد كنت أنت الفريسة الثانية في ترتيب قائمتهم السوداء، وكان الضحية الأولى هو جوستاف. هيا بنا، فقد تركت الدكتور لوتز يعنى به.

فذهبا إلى غرفة دوريه حيث كان الدكتور لوتز يضمد جراحه، فالتفت إليهما الطبيب وقال: أوه يا سيد شوارتز، ما أفظعها من جريمة! ما أقسى قلوب هؤلاء السفاحين.

وكان دوريه لا يزال يئن بصوت خافت ضعيف من شدة

الألم، فسأل شوارتز الطبيب: هل حالته خطرة؟

- لا يزال فيه رمق من الحياة، ولهذا يجب أن يبقى صامتاً ولا يتكلم.

فسأل شوارتز بوارو قائلاً: لقد قلت لي إن دوريه مفتش شرطة، فماذا كان يفعل في روشتنج؟

- كان يبحث عن هؤلاء المجرمين الخطرين.

وروى بوارو القصة باختصار، فقال الدكتور لوتز: ماراسود؟ لقد قرأت عن جريمته في الجرائد. إنني في الحقيقة متعطش لرؤيته لأبحث شذوذه وأتعرف خصائص طفولته.

قال بوارو: وأنا يهمني أن أعرف أين ماراسود الآن.

فقال شوارتز: هل هو أحد أولئك الثلاثة الذين حبسناهم في الخزانة؟

قال بوارو: ربما، ولكني لا أجزم بذلك. أنا عندي فكرة.

ولمح فجأة علامة على البساط فقال: آثار أقدام ملوثة بالدماء تغطي الطريق إلى أحد أجنحة الفندق، هيا بنا بسرعة.

وسار يتبعه زميلاه في طريق مظلم مترب، والتف الطريق وما زالت عليه آثار الأقدام الملوثة، حتى وصلوا

إلى باب قد فُتح نصفه. دفع بوارو الباب ودخل فوجد غرفة نوم استعملت حديثاً وعلى المنضدة صحاف الطعام، وارتاع لرؤية جثة ملقاة على الأرض وقد مُثّل بها تمثيلاً شنيعاً.

تساءل شوارتز بصوت ضعيف: ترى من يكون هذا القتيل؟

فقال بوارو: أظنه الخادم روبرت الذي عُرف بالغباء وقلة النشاط.

ولكن الدكتور لوتز تقدم نحو الجثة وانحنى وهو يشير إلى ورقة ألصقت بصدر القتيل، فقرأها شوارتز: "لن يقتل ماراسود أحداً بعد اليوم ولن يسلب حقوق أصدقائه". ثم قال: إذن فهذا هو ماراسود وقد قتله زملاؤه! ولكن من الذي جاء به إلى هذا المكان؟ ولماذا دعوته روبرت؟

قال بوارو: كان يعمل هنا خادم متنكر باسم روبرت، وكان معروفاً أنه بعد طرده قد عاد إلى أندرومات ولكن لم يره أحد.

- وماذا تظن قد حدث بعد ذلك؟

فأجاب بوارو: أظن أن ما حدث كان واضحاً على وجه مدير الفندق. كان اضطراب المدير دليلاً على أن ماراسود قدم له رشوة ليسمح له بالاختفاء في هذا الجناح المجهول، ولكن المدير لم يكن مطمئناً له ولم يشعر بالارتياح لوجوده.

قال الدكتور لوتز: ولماذا قُتل؟ ومن ترى قتله؟

فصاح شوارتز قائلاً: من السهل أن نستنتج أن ماراسود حاول أن يغتصب نصيب شركائه في الغنيمة فجاء إلى هذا المكان النائي ليكون بعيداً عنهم، ولكنه أخطأ إذ تبعه زملاؤه فلقي حتفه على أيديهم.

قال بوارو: إذن فلم يكن حضورهم لموعد حدد للاجتماع؟

فقال الدكتور لوتز: لا ريب أن حواركم القائم على الاستنتاج ممتع، ولكن أمامنا الآن قتيل وآخر جريح، وليس لديّ من العقاقير الطبية ما يكفيني لمواصلة علاجه فقد انقطعت بنا الأسباب مع العالم، فإلى متى سنظل في عزلتنا هذه؟

وأضاف شوارتز قائلاً: وفي قبضة أيدينا ثلاثة مجرمين.

قال الدكتور لوتز: ماذا سنفعل؟

فرد بوارو: سنقبض على مدير الفندق. إنه ليس مجرماً ولكنه جشع، وهو لجبنه سيصيخ لأوامرنا. أما الطاهية وزوجها فسأجد عندهما الحبال التي أريدها لنقيد بها أولئك المجرمين وندعهم في مكان آمن حتى تصلنا النجدة، وسيساعدنا مسدس السيد شوارتز في تنفيذ أغراضنا.

فسأل الدكتور لوتز: وأنا ماذا سأفعل؟

فرد بوارو بلهجة جادة: ابذل كل جهدك لإنقاذ حياة الجريح، وسنتناوب في السهر على تمريضه حتى يبرأ.

* * *

بعد ثلاثة أيام وصل إلى الفندق بضعة رجال فاستقبلهم بوارو في ساعة مبكرة قائلاً: مرحباً أيها الصديق العزيز ليمنتل.

فشد المفتش ليمنتل على يديه وأجاب: لا أدري يا عزيزي كيف أعبّر عن تقديري لك وعواطفي نحوك، وإني لأعلم أنك اجتزت محنة قاسية، وقد كنت مشفقاً عليك قلقاً لأجلك وانقطعت أمامنا سبل المواصلات التي تمكننا من الاطمئنان عليك.

ودخل ضابط الشرطة وجماعته إلى الفندق فقال: أظن أن حضورنا لم يكن منتظَراً؟

فقال بوارو: طبعاً، لأن القطار لم يعد بعد.

- نعم، إنه يوم شاق. ولكن هل تأكدتم من وجود ماراسود؟

- نعم، تعال معي.

وصعدوا على الدرج، فخرج شوارتز من أحد الأبواب في ثياب نومه وسأل: إنني أسمع أصواتاً، ما هذا الذي أرى؟

قال بوارو: لقد جاءتنا النجدة.

فقال شوارتز: هل أنتم ذاهبون للاطمئنان على حالة المفتش دوريه؟ لقد أكد الدكتور لوتز أمس أن حالته قد تحسنت قليلاً.

وساروا إلى حيث يستلقي دوريه، وتقدم نحوه رجال الشرطة وهم في شدة التأثر ليمنعوه بلطف من محاولة النهوض من فراشه، ولكن بوارو صاح قائلاً: هوذا الدب البري يا سادتي، خذوه حياً وحذار أن تدعوه يفلت من المقصلة.

فروع الجميع لهذه المفاجأة وصاح شوارتز: ولكن هذا هو جوستاف الخادم... إنه المفتش دوريه.

- نعم، إنه هو جوستاف، وليس دوريه، وقد كان دوريه سلفاً له. أعني أنه كان الخادم المدعو روبرت، وقد قتله ماراسود في ذلك الجناح المهجور في نفس الليلة التي هاجمني فيها أولئك المجرمون.

* * *

قال بوارو لصديقه شوارتز، السائح الأمريكي، وهما يتناولان طعام الإفطار: لعلك تعرف يا صديقي أن هناك أشياء يتعلمها الإنسان بحكم مهنته، فمن السهل عليّ مثلاً أن أميز بين المجرم ورجل الشرطة، ولهذا اشتبهت في أمر جوستاف منذ اللحظة الأولى وصممت ألا أشرب القهوة التي قدمها إليّ في تلك الليلة فرميت بها جانباً. وفي الهزيع

الأخير جاء إلى غرفتي رجل يثق أنني في غيبوبة من المخدر الذي دسه لي في القهوة، فأخذ يبحث في أمتعتي حتى عثر على الورقة التي تعمدت تركها في جيب معطفي فيسهل عليه العثور عليها. وفي صبيحة اليوم التالي حضر جوستاف إلى غرفتي يحمل القهوة فحياني باسمي وقام بخدمتي بكل نشاط، ولكني لمحت في حركاته قليلاً من الاضطراب. ويبدو أنه أحس أن الشرطة في إثره وأنه قد وقع في فخ لا يستطيع منه فراراً.

فقال شوارتز مستنكراً: ما أحمقه! لماذا جاء إلى هنا أصلاً؟

فقال بوارو: كلا، لم يكن أحمق كما تظن، لكنه كان محتاجاً إلى مكان ناء بعيد عن العالم يجتمع فيه بشخص معين.

- ترى من هو ذلك الشخص؟

- هو الدكتور لوتز.

- الدكتور لوتز. هل هو مجرم أيضاً؟

- الدكتور لوتز طبيب حقيقي، ولكنه لم يكن أخصائياً في الأمراض النفسية كما زعم، وإنما هو جراح في التجميل وتغيير معالم الوجه، وقد اتفق معه ماراسود على المقابلة في هذا الفندق القصي. والطبيب -كما تعلم- رجل مشرد من وطنه وفقير، فلم يتردد أمام الأجر الباهظ الذي دفع له في

الحضور لتغيير سحنة ماراسود بجراحته البارعة. وربما كان يعلم أن ماراسود مجرم، ولكنه تجاهل ذلك ووافق على أن يجري العملية في هذا الفندق البعيد عن العالم والذي يمكن رشوة مديره بسهولة. ولكن الأمور سارت على غير ما يريد ماراسود، فقد تأخر حراسه الثلاثة الشخصيون عن الحضور واضطر إلى العمل بمفرده، فاختطف مفتش الشرطة المتنكر في زي خادم وحل محله، وعطلت العصابة القطار. وفي الليلة التالية قتلوا مفتش الشرطة وألصقوا بثيابه تلك الورقة، وكانوا يحسبون أنهم إلى أن يحين زمن إصلاح القطار سيتمكنون من دفن جثة الخادم المسكين أو ماراسود المزعوم. أما الدكتور لوتز فكان سيقوم بالعملية بسرعة، ولم يبقَ غير شخص واحد يجب التخلص منه إلى الأبد وهو بوارو، فهجمت عليّ العصابة تريد قتلي أولاً لولا وقفتك المشرفة.

قال شوارتز: إذن فأنت حقاً بوارو؟ لا عجب إذا كانت خدعتهم لم تنطلِ عليك فلم تُخدع بجثة ماراسود المزعوم. ولكن لماذا لم تصارحني بالحقيقة من أول الأمر؟

قال بوارو: لأنني أردت أن أتأكد من القبض على الدب المفترس وتسليمه إلى رجال الشرطة حياً.

* * *

الكلب الضائع

- ماذا وراءك يا آنسة ليمون؟

كان هذا أول سؤال ابتدر به هيركيول بوار سكرتيرته وهو يدخل مكتبه. فأجابته الآنسة ليمون: ليس أكثر من خطاب واحد ربما يعنيك أمره يا سيد بوارو، يطلب مرسله إليك البحث عن كلب زوجته المختفي.

قالت ذلك ثم تركته قبل أن ترى نظراته العاتبة، وبدأت تعمل على الآلة الكاتبة بسرعة خاطفة فلم تسمع ما كان يتمتم به من كلمات. وتناول الخطاب، ولم ينتهِ من قراءته حتى تقوست شفتاه وغمغم من بين أسنانه: سرقة كلب تقتنيه سيدة غنية. إنها حادثة عادية، ولكن ترى هل في الأمر شيء؟

ثم جلس يعيد قراءة الخطاب بهدوء وإمعان وهو لا يزال مصراً على أنها مسألة عادية. ولكن سرعان ما اعترته دهشة قوية فارتفع صوته على غير وعي منه حتى طغى على ضجيج الآلة الكاتبة. وسمعته الآنسة ليمون يقول: اطلبي السير جوزيف هوجين واتفقي معه على موعد أقابله فيه بمكتبه.

فصدعت السكرتيرة الأمينة للأمر.

* * *

قال السير جوزيف: أنا شخص بسيط يا سيد بوارو.

ورغم إعجاب بوارو بتواضع مضيفه وإنكاره لذاته، فإن الصورة التي انطبعت في ذهنه تدل حقاً على أنه رجل بسيط. فقد كانت عينا السير جوزيف صغيرتين وأنفه معوجاً وشفتاه مغلقتين، وذكرته هيئته بشخص كان قد رآه في بلجيكا ولكنه لا يستطيع الآن أن يتبين من هو.

واستطرد السير جوزيف يقول: قد يترك كثير من الناس مثل هذه الحادثة تمر وكأنها لم تكن، ولكنني لست من هؤلاء. أنا شخص غني ولا تهمني طبعاً مئتا جنيه فدية لكلب زوجتي العزيزة.

فقال بوارو بلهجة تشوبها السخرية: إذن فلأهنئك!

فصمت السير جوزيف لحظة وازدادت عيناه ضيقاً، ثم قال بحدة: لا أعني طبعاً أنني أبعثر نقودي بغير حساب، ولكني لا أتردد في دفع أي مبلغ ما دمت أوقن بأنه قد وُضع في محله.

- هل تعرف أنني أتقاضى أجراً عالياً؟

فنظر إليه السير جوزيف بخبث ورد: نعم، نعم. هذا أمر يسير.

- أنا لا أعرف المساومة لأنني رجل أخصائي في مهنتي، ويجب أن أتقاضى أجراً مجزياً.

قال السير جوزيف بصوت صريح: لقد تحريت عنك وعلمت مدى كفاءتك، ولهذا استدعيتك لأوكل إليك هذه المهمة. ومهما ارتفع أجرك فلن يعوقني شيء عن تنفيذ غرضي والوصول إلى هدفي.

- إنك لسعيد حقاً، فقد قررت اعتزال العمل والعودة إلى الريف والطواف أحياناً حول العالم والعناية بضيعتي، غير أن قضيتك قد جذبتني لتفاهتها!

- مدهش، لعلك لم تجرب ضيق السيدات وضجرهن عندما يفقدن كلابهن المدللة.

- بل لقد جربت ذلك. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها الزوج هو من يستدعيني للقيام بمثل هذه المهمة!

وهنا ازدادت عينا السير جوزيف ضيقاً وقال: لقد أدركت سبب امتداح الناس لك.

- متى اختفى الكلب؟

- منذ أسبوع بالضبط.

- هل رجع إليكم؟

احمر وجه السير جوزيف وقال: نعم.

فصاح بوارو: إذن ما دوري أنا، وماذا تريد مني ما دام

الكب قد عاد؟

قال السير جوزيف: نعم، سأروي لك القصة بحذافيرها. منذ أسبوع خرجت زوجتي ومعها كلبها البكيني وتوجهت إلى حديقة كنسنجتن حيث سُرق، وفي اليوم التالي طولبت بمئتي جنيه مكافأة لرده.

- ولم توافق طبعاً على دفع المكافأة؟

- لم أوافق... أو بعبارة أصح: لم أسترح لتصرف زوجتي التي لم تكاشفني بالحقيقة إلاّ بعد إرسال المكافأة إلى العنوان الذي حدد لها.

- وهل عاد الكلب؟

- نعم، في نفس ذلك المساء رن جرس الباب، فوجدناه يجلس وحيداً على العتبة.

- حسناً، استمر.

- بعد ذلك صارحتني زوجتي بما فعلت فكدت أجن من شدة الغيظ، لكني تمالكت نفسي إذ لم أر فائدة من الغضب على شيء قد مضى. ولعلي كنت على وشك نسيانه لولا أن قابلت صديقي صمويل في النادي.

- لماذا؟

- لقد وقعت له نفس الحادثة، وطُلب من زوجته أن

تدفع ثلاثمئة جنيه، ولهذا قررت أن أضع حداً لهذه المهازل فاستدعيتك.

- ولكن الطريق السهل الذي لا يكلفك شيئاً هو أن تبلغ الشرطة.

- هل أنت متزوج يا سيد بوارو؟

- لم تتيسر لي هذه السعادة مع الأسف.

- لو أنك نعمت بهذه السعادة لعلمت أن النساء مخلوقات عجيبة، فبمجرد أن ذكرت الشرطة أمام زوجتي كاد يطير عقلها خوفاً من أن يصيب كلبها المدلل سوء، ولولا إصراري على استدعائك لما أذعنت.

- الموقف دقيق، فهل توافق على أن أقابل زوجتك لأحصل على معلومات أوفى ولأؤكد لها أن تطمئن في المستقبل على كلبها العزيز؟

فأومأ السير جوزيف برأسه بالموافقة ثم وقف وقال: إذن سآخذك معي في سيارتي.

* * *

كانت غرفة الاستقبال فسيحة فخمة الأثاث ينبعث منها الدفء والعطر، وكان يجلس فيها سيدتان. وعندما دخل السير جوزيف وصاحبه اندفع كلب صغير من النوع الثمين نحو بوارو وراح ينبح بشدة، فأخذت صاحبته تلطف من

حدته وطلبت من مرافقتها أن تسكته.

قال بوارو: كلب كالأسد، لا يهاب أحداً ولا يخشى شيئاً.

وبعد أن قدمه السير جوزيف إلى زوجته تركهما وانصرف. كانت الليدي هوجين سيدة ضخمة الجسم يعلو هامتها شعر أحمر من أثر الخضاب، وكانت وصيفتها أو مرافقتها، الآنسة كارنابي، مقبولة الشكل وإن تكن قد تجاوزت الأربعين من عمرها.

قال بوارو: هل تتفضلين بإخباري عن ظروف هذه الحادثة يا ليدي هوجين؟

قالت الليدي: أشكرك لاهتمامك الملحوظ بهذه الحادثة التي كان سيذهب ضحيتها كلبي العزيز.

وبعد أن أظهرت الآنسة كارنابي شيئاً من اللوعة على ما كان سيلقاه المسكين قال بوارو: أريد أن أعرف الحقيقة.

فردت الليدي: حسناً، لقد خرج الكلب للنزهة مع الآنسة كارنابي...

وهنا قاطعتها الآنسة كارنابي: نعم، كانت غلطتي. كم كنت غبية ومهملة!

قالت الليدي: لا أريد تأنيبك يا عزيزتي، بل أظن أنك كنت ذكية ولبقة.

فالتفت بوارو إلى الآنسة كارنابي وقال: ماذا حدث؟

- شيء عجيب حقاً. كنا نسير في المنتزه فوق العشب وبين الزهور، وكان شانتنج الكلب الظريف يتولى القيادة، فيجري أمامنا حيناً ويقف أحياناً، حتى أخذنا نصيبنا من التنزه. وفي أثناء عودتي لفت نظري طفل صغير بخديه الورديتين وشفتيه القرمزيتين اللتين انفرجتا عن ابتسامة شدتني إليه، فوقفت أسأل مربيته عن عمره فردت بأنه يبلغ الثمانية عشرة شهراً. ولم يتجاوز حديثي مع المربية أكثر من دقيقتين، وبعد ذلك تلفّت حولي فلم أعثر على الكلب...

اغرورقت عينا السيدة بالدموع، ولكن بوارو استدرك الأمر وسألها بسرعة: وماذا حدث بعد ذلك؟

ردت الآنسة كارنابي: لقد بحثت عنه في كل مكان وطفقت أناديه بأعلى صوتي كمن أصابه مس، ولما يئست سألت حارس المنتزه إذا كان قد رأى أحداً يحمل كلباً وهو خارج من المنتزه، فأجابني بالنفي. وأخيراً عدت آسفة حزينة.

وبعد فترة قصيرة من الصمت قال بوارو: وبعد ذلك تسلمتم الخطاب؟

قالت الليدي: وجدت في أول بريد وصلنا، في صبيحة اليوم التالي، خطاباً يقول كاتبه أنني إذا كنت أريد أن أرى كلبي ثانية فعلي أن أبعث بورقتين من ذات المئة جنيه، على

عنوان الكابتن كورتس رقم ٣٨ في شارع بلومسبوري، مع تحذيري بأنه إذا وضعت أية علامة على النقود أو بلغ الشرطة أي نبأ فستقطع أذنا الكلب ويفصل ذيله.

قالت الآنسة كارنابي: ما أقسى قلب الإنسان!

وتابعت الليدي حديثها: ويعد ذلك الخطاب بأنني إن أرسلت النقود حالاً فسوف يعود إلي كلبي سليماً معافى، أما إذا لجأت إلى الشرطة فالقصاص واقع على الكلب لا محالة.

قالت الآنسة كارنابي بصوت متهدج: لا يزال الرعب يتملكني كلما تخيلت أن السيد بوارو من رجال الشرطة.

رد بوارو: ولكني لست من أفراد الشرطة، وستسير تحرياتي بمنتهى الحذر والهدوء وسيكون كلبك في أمان.

وقعت كلماته من قلب السيدتين موقعاً حسناً. وتابع يقول: هل الخطاب عندك؟

فردت الليدي: كلا، لأنني أُمرت برده ثانية مع المال.

- وهل نفذت ذلك الأمر؟

- نعم.

قالت الآنسة كارنابي: لكنني محتفظة بسلسلة الكلب ويمكنني أن أحضرها.

وانتهز بوارو فرصة خروجها من الغرفة ليستأنف حديثه بحرية مع الليدي التي أخذت تقول: آمي كارنابي طيبة، وإن كانت لا تخلو من الطيش كسائر أترابها اللاتي عاشرتهن، فهن مغرمات كثيراً بالأطفال، ولكن على الرغم من ذلك فما كنت أظن أن تفعل كارنابي مع كلبي أكثر مما فعلت.

قال بوارو: لكن ما دام الكلب قد ضاع منها فلا بد أن يرتاب المرء في أمانتها. هل قضت في خدمتك وقتاً طويلاً؟

- استخدمتها منذ عام تقريباً، وكانت قبل ذلك في خدمة مدام هارتنجفيلد حيث قضت عندها عشرة أعوام، وهي شخصية ممتازة.

وعادت الآنسة كارنابي تحمل السلسلة الخاصة بالكلب وسلمتها لبوارو، فأخذ يفحصها بدقة وقال: نعم، ولكن السلسلة مقطوعة من غير شك!

وظلت السيدتان صامتتين إلى أن قال: سأحتفظ بها على كل حال. ووضعها في جيبه بكل هدوء. وتنفست السيدتان الصعداء لأنه لم يفعل أكثر مما ينتظر منه.

* * *

لم يكن من عادة بوارو أن يترك الأمور تمر من غير أن يمعن في تمحيصها. وإن كانت الظواهر تدل على أن الآنسة كارنابي امرأة حمقاء إلاّ أن موقفها في هذا الحادث كان يدعو

إلى الريبة. لهذا أصر على مقابلة ابنة شقيق مدام هارتنجفيلد (لأن هذه الأخيرة كانت قد توفيت).

قالت الآنسة مالترافر: آمي كارنابي؟ نعم، أذكرها جيداً. سيدة طيبة، وكانت موضع تقدير عمتي جوليا. إنها تحب الكلاب وتجيد القراءة بصوت مرتفع، وهي ماهرة ومطيعة. هل حدث منها شيء؟ لقد أعطيتها شهادة حسنة لتقدمها إلى مخدومتها الجديدة، وكان ذلك منذ عام تقريباً.

فقال بوارو: لا تزال الآنسة كارنابي عند حسن ظنك بها، ولكن مشكلتها أنها فقدت كلب مخدومتها.

- الآنسة كارنابي تحب الكلاب، وقد كان لدى عمتي كلب عزيز تركته لها بعد وفاتها، فكانت تحبه وتبالغ في تدليله، وأظن أنها حزنت كثيراً لموته. نعم، إنها سعيدة طيبة، وإن كانت لا تخلو من حماقة.

وكانت الخطوة التالية لبوارو هي سؤال حارس المنتزه الذي شهد الحادث. قال الحارس: سيدة بدينة أضاعت كلبها؟ نعم، أعرفها ويمكنني أن أرشد إليها لو رأيتها لأنها دائمة التردد بعد ظهر كل يوم. لقد حضرت وبرفقتها كلبها المعتاد ولكنها أضاعته، فجاءتني تسأل في هلع واضطراب عما إذا كنت قد رأيت كلبها، فأجبتها بأن الكلاب تأتي إلى هذا المنتزه بكثرة وعلى اختلاف أنواعها ويتعذر عليّ أن أميز بينها.

فهز بوارو رأسه، ثم ذهب إلى المنزل رقم ٣٨ بشارع بلومسبوري. وجد الأرقام ٣٨ و٣٩ و٤٠ قد وضعت جميعها على واجهة فندق بلاكلافا. صعد درج الفندق ثم دفع الباب فانفتح، ودخل فزكمت أنفه رائحة كرنب وبقايا طعام الإفطار. ورأى على يمينه طاولة وبجانبها رف لخطابات الزائرين فوقف يتأمله لحظة، ثم دفع باباً على يمينه أدى به إلى ردهة بها كراسي مريحة مغطاة بالقماش وبضع مناضد صغيرة مبعثرة هنا وهناك.

وكان يجلس في الردهة ثلاث سيدات شمطاوات ورجل عجوز مقطب المحيا حديد النظر، فرفع الجميع رؤوسهم ينظرون إلى هذا الصيف الفضولي، ولكن بوارو انسحب بسرعة وسار في ممر طويل تفرع منه ممر آخر إلى الجهة اليمنى أدى به إلى غرفة الطعام ثم إلى غرفة أخرى على بابها لافتة صغيرة كتب عليها «المكتب».

طرق باب المكتب طرقاً خفيفاً فلم يجبه أحد، ففتح الباب فرأى مكتباً كبيراً عليه بعض الأوراق ولكنه لم يجد أحداً، فانسحب وأغلق الباب ثانية ثم دخل غرفة الطعام. وهناك وجد فتاة بائسة عليها مريلة قذرة وتحمل سلة صغيرة ممتلئة بالملاعق والسكاكين تضع منها ما تريد على المائدة.

قال بوارو: معذرة، هل يمكنني أن أقابل المديرة؟

- أؤكد لك أنني لا أعرف.

- ألا يوجد أحد في المكتب؟

- أؤكد لك أنني لا أعرف أين هي.

- ربما تستطيعين العثور عليها؟

- حسناً، سأحاول.

شكرها بوارو وذهب إلى الردهة ينتظر المديرة، ثم تسللت إلى أنفه رائحة عطر البنفسج معلنة قدوم شخص. وكانت الآتية هي الآنسة هارت المديرة. كانت سيدة أنيقة وقالت معتذرة: أنا آسفة لأنني لم أكن في مكتبي. هل كنت تريد غرفة؟

قال بوارو: لا، أنا أبحث عن صاحبي الكابتن كورتيس.

- الكابتن كورتيس؟ لا أذكر متى سمعت هذا الاسم.

- ربما لم تسمعي به، ولكن هل يقيم هذا الشخص هنا؟

- أؤكد لك أنه لم ينزل هنا في الأيام الأخيرة، وإن كان هذا الاسم معروفاً لدي. أيمكنك أن تصف لي صاحبه؟

- من الصعب عليّ أن أصفه. ولكن هل تصلكم خطابات لأشخاص لا ينزل أصحابها عندكم؟

- قد يحدث هذا طبعاً.

- ماذا تفعلين بمثل هذه الخطابات؟

- نحتفظ بها حتى يأتي أصحابها، وإذا طال عليها الأمد أعدناها إلى مكتب البريد.

هز بوارو رأسه وقال: آه، الواقع أنني كنت قد كتبت له خطاباً...

فتفرست فيه الآنسة هارت بحدة وقالت: أذكر أنني قرأت هذا الاسم على أحد الخطابات. ولكن نزلاءنا وضيوفنا من رجال الجيش السابقين كثيرون جداً، فاتركني أبحث.

وراحت المديرة تبحث في مكتبها، واستدرك بوارو قائلاً: الخطاب ليس عندكم الآن، وربما رُدّ ثانية إلى مكتب البريد. أنا آسف، ليس الأمر مهماً على كل حال.

ثم انصرف بوارو، وقالت المديرة وهي تودعه: ربما يأتي صديقك هنا في فرصة أخرى.

- لا يُحتمل حضوره ثانية، لقد كنت مخطئاً.

فقالت المديرة، ولا يزال عطر البنفسج ينتشر من ثيابها فيعطر الجو: نحن نعد لنزلائنا أثاثاً فخماً ونخدمهم ولا نتقاضى منهم سوى أجر يسير مع تقديم القهوة عقب الأكل. هل تتفضل معي لترى بقية الغرف؟

ولكن بوارو استطاع أن يهرب منها بلباقة.

* * *

كانت غرفة الاستقبال الخاصة بمدام صمويل أكثر اتساعاً وأفخم أثاثاً من غرفة الليدي. وكانت صاحبتها أكثر طولاً وتصبغ شعرها، أما كلبها المدلل فاسمه «ناكي بو»، وقد أخذ يفحص بوارو بعينيه الواسعتين. وأما وصيفتها، الآنسة كيبل، فتختلف عن الآنسة كارنابي بنحافة بدنها وإن كانت تشاركها في بعض الصفات والحركات. وقد لقيت من مدام صمويل من التعنيف لفقد كلبها المدلل ما لقيته زميلتها.

قالت الآنسة كيبل: كانت سرقة كلبنا حادثة غريبة حقاً تمت في ثانية واحدة، سألتني مربية معها طفل جذاب عن الوقت...

فقاطعتها مدام صمويل قائلة: وبينما هي تتحدث مع المربية إذا باللص يقطع الطوق ويسرق ناكي بو.

فقالت الآنسة كيبل وهي تكاد تبكي: كل هذا حدث في أقل من ثانية، وعبثاً حاولت أن أجده. ولا يزال الطوق معي، أتريد أن تراه يا مسيو بوارو؟

- لا، ولكنكم بعد ذلك تسلمتم خطاباً؟

- لقد سارت تلك القصة في نفس الطريق الذي سارت فيه القصة الأخرى ولم تختلف عنها إلاّ في نقطتين ثانويتين. المبلغ ثلاثمئة جنيه، والعنوان: الكوماندور بلاكلي بفندق هارنجتون رقم ٧٦ بحدائق كلونميل كنسنجتن.

قالت مدام صمويل: وقد أرسلت المبلغ كاملاً.

وقال بوارو مبتسماً: وبالطبع لم يكن هناك شخص بهذا الاسم؟

واستطردت مدام صمويل: ولكن الحادث أزعج زوجي كثيراً.

فسألها بوارو: لعلك لم تستشيريه قبل إرسال النقود؟

- أبداً. إن للرجال طباعاً عجيبة، فهم يتشددون في مواقف يحسن فيها التساهل. ولو كنت أخبرته لأصر على إبلاغ الشرطة وبهذا نفقد كلبنا العزيز إلى الأبد، ولكنني أخبرته في النهاية بعد أن عاد إليّ «ناكي بو» سالماً معافى.

- حسناً، حسناً.

ثم استطردت مدام صمويل تقول وهي تصلح من سوارها الماسي وتدير خاتمها الثمين في إصبعها: ولكنني لم أره في حياتي أكثر غضباً مما كان في ذلك اليوم، لأن الرجال يركزون اهتمامهم على المال!

* * *

ذهب بوارو إلى مكتب السير جوزيف هوجين وبعث إليه ببطاقته. وبينما هو في انتظاره إذا بفتاة شقراء تخرج من مكتبه حاملة بعض الأوراق ومرت بجانبه وهي تنظر إليه شزراً.

كان السير هوجين يجلس إلى مكتبه الفخم وقد ظهر على خده أثر من أحمر الشفاه. وقال لضيفه: اجلس يا مسيو بوارو. هل لديك أخبار تهمني؟

قال بوارو: المسألة واضحة كثيراً في حادثكم وحادث السير صمويل. نقود ترسل إلى فندقين عامين ليس فيهما بواب أو حارس والمترددون عليهما كثيرون، معظمهم من رجال الجيش المتقاعدين، ومن السهل على أي فرد من المترددين أن يأخذ ما يريد من الخطابات أو ينتزع ما بداخلها من نقود ويردها إلى مكانها بعد أن يستبدل بالنقود أوراقاً بيضاء من غير أن يجد عيناً تراقبه.

- هذا معناه أنك لم تستطع الاهتداء إلى اللص؟

- نعم، ولكن الاهتداء يتطلب بعض الوقت.

فنظر إليه السير هوجين مندهشاً وقال: متى ستفيدني بالنتيجة؟

- قريباً.

- ولكن أعتقد أنك كلما تعمقت في بحثك استعصى عليك الأمر.

- لا تخف من الفشل، لأن بوارو لا يعرف الفشل.

فنظر إليه هوجين وهو يقرض بأسنانه قائلاً: هل أنت واثق من نفسك؟

- كل الوثوق.

- ولكن تأكد أن الغرور كثيراً ما يسبق الفشل.

* * *

قال بوارو لخادمه الخاص بنبرات تشيع فيها الثقة: أفاهم أنت يا جورج؟

- نعم يا سيدي.

- يحتمل أن تكون شقة أو فيلا في مكان ما. ويقع هذا المكان بالضبط في جنوب المنتزه وشرق كنيسة كنسنجتن وغرب قنطرة الفرسان وشمال طريق فولهام.

- أفهم ذلك حسناً يا سيدي.

ومضى بوارو يقول: لغز عجيب حقاً يحتاج حله إلى مهارة فائقة. هل أستطيع أن أبهر زبوني بعبقريتي الفذة؟ ولكنه مع الأسف يشبه صانع الصابون بمدينة لياج الذي سمم امرأته ليتزوج بسكرتيرته الشقراء. كانت مأساة ذلك الصانع من القضايا التي نجحت فيها وأكسبتني شهرة واسعة.

فهزّ الخادم رأسه، ثم قال وهو يتصنع الجد والرزانة: هؤلاء الشقراوات هن السبب في معظم المتاعب.

* * *

بعد ثلاثة أيام جاءه جورج بالعنوان المطلوب مكتوباً على ورقة صغيرة فقال له: أنت مدهش يا جورج، هل عرفت اليوم بالضبط؟

- الثلاثاء يا سيدي.

- عجباً، من حسن الحظ أن اليوم يوافق الثلاثاء. يجب ألا نتأخر.

وبعد نحو عشرين دقيقة كان بوارو يصعد الدرج في مبنى مظلم بشارع متواضع، ولما أحس بالتعب وقف ليستريح قليلاً قبل أن يضغط على جرس الشقة رقم ١٠، ولكنه سمع من خلف الباب صوتاً يقطع حبل السكون، سمع كلباً ينبح بشدة.

هزّ بوارو رأسه وابتسم قليلاً، ثم تقدم ليضغط الجرس فازداد النباح قوة وانفتح الباب.

كادت الآنسة كارنابي تقع على الأرض وهي تدق صدرها من الدهشة والوجل، فقال بوارو: أرجو أن تسمحي لي بالدخول.

ودون أن ينتظر منها رداً دخل غرفة الاستقبال، وكان بابها مفتوحاً، فتبعته الآنسة كارنابي كأنها في حلم عميق. كانت غرفة صغيرة ولكنها مكتظة بالأثاث، وكانت تتمدد على أريكة فيها امرأة عجوز بالقرب من المدفأة، وقفز من قربها كلب مدلل يحاول أن ينبح على الضيف الفضولي.

ولكن بوارو عرفه وقال: لقد عرفت هذا الكلب، وهذه السيدة هي أختك وأنت تأتين إلى هنا كل يوم ثلاثاء لأنه يوم إجازتك، أليس كذلك؟

قالت الآنسة كارنابي: نعم، إنها شقيقتي إميلي.

حمل بوارو الكلب ووضعه على ركبته وقال: أظن أن مهمتي قد أوشكت على نهايتها، فقد وقع الأسد في قبضتي.

قالت آمي كارنابي بصوت هادئ غليظ: هل علمت كل شيء حقاً؟

- أظن ذلك، ويظهر لي أنك المحور الذي تدور عليه هذه الحوادث بمعاونة هذا الكلب المدعو أوغست. فأنت تخرجين بكلب مخدومتك، وبدلاً من الذهاب به إلى المنتزه تحضرين به إلى هذه الشقة وتستبدلين به الكلب أوغست، حتى إذا سئل حارس المنتزه قرر أنك كنت تصطحبين كلباً مدللاً. ولكنه في الحقيقة هذا الكلب أوغست المتمرن على العودة إلى هذا المكان بمفرده. حين تنتزعين طوقه، وبعد دقائق تصيحين منزعجة بأن كلباً مدللاً قد سُرق منك.

وبعد لحظة من الصمت لم تجد الآنسة كارنابي بداً من الاعتراف بالحقيقة، فتظاهرت بالجلد والكبرياء وقالت: نعم، هذه هي الحقيقة، وليس لديّ شيء أقوله.

- لا شيء يا سيدتي؟

- لا شيء. فأنا لصة، وقد وقعت الآن بين يدي العدالة.

- لا شيء تقولينه للدفاع عن نفسك؟

احمرّ خداها فجأة وقالت: لست نادمة على ما فعلت، وأنت رجل عطوف يا مسيو بوارو. ولعلك أدركت أنني مرتعبة خائفة.

- ممّن تخافين؟

- نعم، إنه لمن الصعب على الرجل الكريم أن يدرك حقائق الأمور. فها أنذا يا سيدي امرأة ساذجة، لا أعرف مهنة تقيني شر العوز وقد أوشكت أن تتقدم بي السن، ولذا تراني دائمة الإشفاق من مستقبلي المظلم الذي لم أدخر له مالاً ينفعني ويقيم أود أختي إميلي. وكلما كبرت نفر مني الرجال ولم يتقدم إليّ من يطلب يدي. وأمثالي ممن حاصرهن البؤس كثيرات لا يجدن أجور الغرف الحقيرة التي يسكنّها. ولست أنفي أن الدولة قد أنشأت بعض الملاجئ، لكن دخولها لا يتيسر إلاّ عن طريق ذوي النفوذ الذين لا يعرفهم غير القليل. ولهذا تجدني -يا سيدي- دائمة الخوف مما ينتظرني كثيرة الإشفاق على مستقبلي المنكود.

وهنا شعرت بصوتها يضطرب، فتجلدت وقالت: ولعلك عرفت يا سيدي أن هذه الكلاب المدللة المعروفة باسم الباكيني تتشابه كلها في الشكل والحجم، وربما

يصعب على أشد الناس فطنة أن يميز بينها. فمَن يستطيع مثلاً أن يفرق بين أوغست وناكي بو وشانتنج؟ أليس هذا الكلب أوفر ذكاء وأجمل منظراً من الآخرين؟ ولهذا نبتت لدي الفكرة، بفضل أوغست الذي يقتني إخوته كثير من السيدات الموسرات.

فقال بوارو وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة: لا شك أنها فكرة شيطانية وعمل مربح. كم درّت عليك هذه اللعبة؟

قالت الآنسة كارنابي ببساطة: لقد أوصل شانتنج عدد الكلاب المخطوفة إلى ستة عشر.

- إذن فأهنئك على إحكامك لطريقتك المدهشة.

قالت آمي كارنابي: كان أبي يقول دائماً إنني أجيد رسم الخطط المحكمة.

فانحنى بوارو وقال: نعم، لأنك متمرسة في الإجرام.

- الإجرام؟ ولكني لا أشعر بأنني قد ارتكبت جريمة.

- بماذا تشعرين إذن؟

ردت الآنسة كارنابي: الحق معك يا سيدي. إن هذا العمل خرق للقانون، ولكني مع ذلك أستطيع أن أبرر لك موقفي بأن جميع السيدات اللاتي يستخدمننا من أمثال

الليدي يتسمن بالقسوة والخشونة، فمخدومتي مثلاً لا تعبأ بما تقول وتغلظ لي القول، وأنا مضطرة -بالطبع- إلى التزام الصمت مع كبت شعوري بالحرج والضيق.

قال بوارو: نعم، أفهم ما تقولين.

وعادت الآنسة كارنابي تقول: وأخيراً أرى الأموال تتبعثر هنا وهناك بغير حساب، وأسمع أحياناً السير جوزيف هوجين يتحدث عن أساليبه في كسب أمواله الطائلة فأرى فيها -على قدر فهمي- طرقاً غير شريفة. لهذا ظننت أن مئتي جنيه مبلغ يسير لن يضيره.

قال بوارو: أرجو أن تخبريني يا آنسة كارنابي عما إذا كنت قد نفذت في حياتك عبارات التهديد التي استعملتها في خطاباتك؟

- تهديد؟

- هل اضطررت إلى تشويه أجساد الحيوانات على نحو ما ذكرت في رسالتك؟

- كلا، لم أفكر في ذلك مطلقاً. تلك العبارة كانت مجرد لمسة فنية.

- نعم، فنية جداً.

- كان أوغست هو وسيلتي الوحيدة، كما كنت بالطبع واثقة من أن هؤلاء السيدات لن يخبرن أزواجهن

بالخطابات إلاّ بعد دفع المبالغ المطلوبة. وهكذا نجحت طريقتي بسهولة. ففي تسع حالات من عشر كانت تذهب الوصيفة أو المرافقة بالخطاب وبداخله النقود إلى مكتب البريد، فنفتحه بالبخار ونأخذ منه النقود ونضع بدلاً منها ورقة بيضاء ونعيده إلى البريد ثانية. وفي حالتين أو ثلاث كانت السيدة تذهب بنفسها إلى مركز البريد، وعندئذٍ تتوجه الوصيفة إلى الفندق لتسلم الخطاب من مكانه المعروف. المسألة كما ترى بسيطة جداً.

- ومسألة المربية والطفل، كيف كانت تتم؟

- المعروف، يا مسيو بوارو، أن العوانس مغرمات بالأطفال. فليس بدعاً أن تنسى الوصيفة كل شيء إذا صادفها طفل ظريف، ولن تُتهم أبداً بالتواطؤ والإهمال.

تنهد بوارو وقال: أنت على جانب عظيم من الفراسة والذكاء وحسن التدبير، وتعرفين كيف تقومين بتمثيل أدوارك بكل إتقان، حتى إن الليدي لم تجد عليك أي مأخذ عند مقابلتي لكما. فلا تأسفي من عدم تعلمك مهنة تقيك شر العوز، فقد منحتك الطبيعة ذهناً صافياً وشجاعة نادرة.

ابتسمت الآنسة كارنابي وقالت: ولكني مع ذلك لم أفلت من يد العدالة.

- لا يمكنك أن تفلتي من يدي طبعاً. وعندما قابلت مدام صمويل تأكدت من أن سرقة شانتنج ما هي إلاّ حلقة

في سلسلة واحدة من الجرائم، وعرفت بالبحث أن لديك كلباً من نوع الباكيني وأنك تعولين أختاً مريضة، فطلبت من خادمي أن يبحث في دائرة محدودة عن شقة تقطنها سيدة مريضة تقتني هذا الكلب وتزورها أختها مرة كل أسبوع.

همّت الآنسة كارنابي بالوقوف وهي تقول: لقد أودع الله في قلبك رحمة وفي رأسك حكمة، فهل لي أن أسألك (وقد أصبح لا مفر لي من السجن) عدم نشر أي شيء عن قضيتي لأن هذا سيؤذي أختي إميلي ويضر بسمعتنا لدى معارفنا القدماء. ولهذا أقترح الذهاب إلى السجن باسم مستعار، وأرجو ألا أكون مخطئة في هذا الرجاء؟

قال بوارو: بل أظن أنني سأفعل ما هو أكثر تسامحاً... على شرط أن أضمن أن حوادث اختفاء الكلاب لن تتجدد منذ الآن، وبعد ذلك أعتبر أن كل شيء قد انتهى.

- نعم، نعم يا سيدي.

- أما النقود التي أخذتِها من الليدي فيجب أن تُرد إليها.

أسرعت الآنسة كارنابي إلى مكتبها وفتحت الدرج وعادت بالنقود وسلمتها له، فوضعها في جيبه بعد أن اطمأن إلى صحة عددها وقال: أرجو أن أتمكن -يا آنسة كارنابي- من إقناع السير جوزيف بعدم السير في الدعوى ضدك.

- أوه يا مسيو بوارو...

وهنا صاحت إميلي المريضة صيحة فرح واطمئنان، وأخذ أوغست يبصبص بذنبه جذلاً مستبشراً، فوجه إليه بوارو كلامه قائلاً: أرجو أن تعيرني شيئاً واحداً يا عزيزي... هو ذلك الرداء السحري الذي يحجبك عن أعين الناس، لأنه يلزمني في عملي الشاق المضني. فمَن كان يظن أنك تلبس «طاقية الإخفاء» لتقوم بدورك الغامض في هذه القضية العجيبة من غير أن يراك أحد؟

فقالت الآنسة آمي كارنابي: ليس هذا بعجيب، فقد علمتنا الأساطير أن كلاب الباكيني قد انحدرت من أصلاب الأسود وأنها ستظل محتفظة بما ورثته عن أجدادها من شجاعة وقوة.

قال لها بوارو: أظن أن أوغست هو الكلب الذي تركته لك مدام هارتنجفيلد وقد أشاعت عنه أنه مات؟ أفلا تخافين عليه من عودته وحيداً في هذا الزحام؟

- كلا يا سيدي، فقد أصبح أوغست ماهراً في اجتناب أخطار الطريق، وقد دربته على التزام طريق واحد لا يتخطاه.

- لا شك أنه -في هذه القضية بالذات- قد تفوق بذكائه على الآدميين.

* * *

قال السير هوجين وقد استقبل بوارو: أرجو أن تكون

قد وصلت إلى نتيجة.

فأجابه بوارو وهو يهم بالجلوس: لي عندك رجاء. لقد عرفت اللص وتوفرت عندي الأدلة على إدانته، ولكني أشك كثيراً في إمكان حصولنا على النقود منه.

احمرّ وجه السير هوجين وقال: لن نحصل منه على نقودنا المغتصبة؟

فاستمر بوارو قائلاً: أنا لست من رجال الشرطة، ولكني مخبر خاص أقوم بمهمتي لحسابك الشخصي، ولهذا أظن أنه يمكنني أن أسترد نقودك من اللص لو أنك تعهدت لي بعدم مقاضاته.

- آه، ولكن هذا يتطلب شيئاً من التفكير.

- إن المسألة تهمك شخصياً وحلها بين يديك، أما إذا نظرنا إليها من الناحية العامة فاحترام القانون والنظام يقتضيك الاستمرار في هذه القضية.

- ولكني أكره أن يقول الناس إن لصاً قد غرّر بي واغتصب أموالي.

- ماذا ترى إذن؟

ضرب السير هوجين بقبضة يده على المنضدة وقال: ولكني سأعرف كيف أموه على الناس، فلن يعرفوا حقيقة المبلغ الذي سُلب مني.

فنهض بوارو وسار نحو منضدة ليكتب شيكاً بمبلغ مئتي جنيه، ثم سلمه للسير هوجين. فسأله هذا بصوت خافت: حسناً، ولكن من يكون هذا اللص؟

فهزّ بوارو رأسه وقال: ما دمت قد قبلت النقود فليس من حقك أن تسألني عن اللص.

فطوى السير هوجين الشيك ووضعه في جيبه وقال: شكراً، شكراً، النقود هي الهدف الذي نسعى إليه. ولكن بكم تظنني مديناً لك؟

- لن يكون أجري عالياً لأن القضية بسيطة كما قلت لك، ومعظم القضايا التي أقبلها في هذه الأيام من نوع القتل والجرائم الفظيعة.

قال السير هوجين: وهي قضايا شيقة رغم فظاعتها؟

فقال بوارو: قد تكون تلك القضايا زاخرة بالغرابة والمفاجآت. ولكنك تذكرني ببطل جريمة وقعت منذ سنتين في بلجيكا لشدة الشبه بينكما. كان صاحب مصنع للصابون وقد سمم زوجته ليتزوج سكرتيرته الحسناء. نعم، إن الشبه بينكما غريب جداً.

ماتت الكلمات في فم السير هوجين وتحولت شفتاه إلى لون أزرق وهرب دمه وجحظت عيناه وغاص في كرسيه حتى كاد أن يختفي فيه، وأخيراً أدخل يده في جيبه وتناول الشيك ومزقه إرباً وقال: أظن أن كل شيء قد انتهى، اعتبر

المبلغ أجراً لك.

- ولكن أجري لا يكون كبيراً إلى هذا الحد.

- حسناً، ولكني قد تبرعت لك به.

- سأوزعه على المعوزين.

- افعل به ما تشاء.

فأحنى بوارو رأسه قليلاً وقال: أرجو أن تكون أكثر حذراً لخطورة مركزك يا سير جوزيف.

قال السير جوزيف بصوت خافت: لا داعي لهذا التحذير، فسأكون أكثر حذراً مما تظن.

وخرج بوارو وهو يتمتم لنفسه: أظن أن تصرفي كان سليماً.

* * *

سألت الليدي زوجها: ما لهذا الدواء قد تغير طعمه ولم تعد له المرارة التي كنت استشعرها من قبل؟

فرد السير جوزيف: لأن الصيادلة قوم مهملون، في كل مرة يتغير تركيبهم لنفس الدواء فنراه مختلفاً من حين لآخر.

فأجابت في غمرة من الشك: أظن أنه الدواء الحقيقي هذه المرة.

- طبعاً هو الدواء الحقيقي، أي شيء آخر تظنينه؟

- هل وصل الرجل إلى نتيجة في مسألة شانتنج؟

- نعم، وقد أحضر أموالي كاملة.

- من هو ذلك اللص الأثيم؟

- لم يشأ أن يفضي إليّ بحقيقته. إن بوارو شخص غامض... وعلى كل حال لا تهتمي لهذه المسألة.

- إنه شخص ظريف على ضآلة جسمه.

شعر السير جوزيف برعشة تهز بدنه فأشاح بوجهه لأن ذكر بوارو جعله يتصوره أمامه بلحمه ودمه. وقال في سريرة نفسه: فلتذهب جريتا إلى حال سبيلها، أما أنا فلن أقدم رقبتي إلى حبل المشنقة من أجل غانية شقراء.

* * *

حدقت آمي كارنابي في الشيك بمبلغ مئتي جنيه وهي لا تكاد تصدق عينيها ثم قالت: إميلي، إميلي. اسمعي: "عزيزتي الآنسة كارنابي، اسمحي لي أن أقدم لك هذه المنحة المرفقة طيه. المخلص: هيركيول بوارو".

- إنك سعيدة الحظ يا آمي. تصوري ماذا كان سيصبح مصيرك الآن؟

- كل شيء قد انتهى الآن. أليس كذلك يا أوغست؟

لن تذهب بعد الآن إلى المنتزه معي أو مع أية واحدة من صديقاتي وبصحبتنا المقص المعروف.

وغامت عيناها قليلاً وتنهدت ثم قالت: ولكني أشفق عليك يا عزيزي أوغست لمهارتك وذكائك، ويحسن أن أروضك على شيء آخر!

* * *

مغنّية الأوبرا

-١-

كان ذلك في لندن، في صباح أحد أيام أيار (مايو)، وفي الساعة الحادية عشرة.

كان السيد كوان يطلّ من نافذة حجرة الاستقبال الفخمة في فندق ريتز، وهو المسكن الذي خُصّص للسيدة بولا نازاركوف مطربة الأوبرا المشهورة التي أقبلت إلى المدينة، والذي كان السيد كوان (وهو وكيل أعمالها) حاضراً للتشاور معها.

استدار السيد كوان عندما سمع صوت الباب يُفتَح، فكانت السيدة ريد سكرتيرة السيدة نازاركوف، وهي فتاة شاحبة حميدة الخصال. قال السيد كوان: أهذه أنت يا عزيزتي؟ ألم تستيقظ السيدة نازاركوف بعد؟

وعندما أجابت السيدة ريد بالنفي عاد يقول: لقد طلبت مني القدوم في تمام الساعة العاشرة، وها أنا انتظر منذ ساعة.

لم ينمّ صوته عن أيّ استياء أو دهشة، فقد تعوّد منذ وقت طويل على نزوات البريمادونا. كان طويل القامة حليق الوجه سميناً بعض الشيء، أنيق الهندام وشعره أسود فاحم

وأسنانه بيضاء ناصعة، وكان نطقه لحرف السين غير سليم.

فُتح الباب الموجود في الناحية الأخرى من الغرفة ودخلت فتاة فرنسية ظريفة، سألها كوان بشيء كبير من الأمل قائلاً: هل استيقظت السيدة نازاركوف؟ ما هي الأخبار اليوم يا إليز؟

فرفعت الفتاة يديها عالياً وقالت: إنها حادّة المزاح هذا الصباح. لا شيء يروقها، حتى إن الزهور الصفراء الجميلة التي أرسلتَها أنت إليها مساء أمس لم تعجبها وقالت إنها بشعة المنظر في لندن ولا تليق إلا بنيويورك، وإن الزهور الحمراء هي التي تليق بلندن. وقد ألقت بها من النافذة فوقعت على رأس رجل مهذّب فاحتدّ غضباً، وله الحق في ذلك.

رفع كوان حاجبَيه دون أن تنمّ ملامحه عن أية دهشة، ثم أخرج من جيبه دفتراً صغيراً كتب فيه «زهور حمراء».

وعادت إليز بأسرع مما جاءت، وعاد كوان إلى النافذة، أما فيرا ريد فقد جلست أمام المكتب وبدأت تفحص الرسائل الواردة. ومضت عشر دقائق في صمت ثم فُتح باب الغرفة بعنف ودخلت بولا نازاركوف، وفجأة بدت الغرفة صغيرة وبدت فيرا ريد امرأة تافهة لا قيمة لها، أما كوان فقد انتظر. قالت البريمادونا: أهلاً بكم، ألست محافظة في مواعيدي؟

كانت طويلة القامة بعيدة عن البدانة التي تتسم بها المطربات، وكانت جميلة رقيقة على قدر كبير من الأناقة، كما كان شعرها لامعاً، وبالرغم من أن لمعانه يرجع إلى الصباغ إلا أن تأثيره كان كبيراً، ومع أنها كانت قد بلغت الأربعين فإن ملامح وجهها كانت لا تزال جميلة، ولكن عينيها السوداوين المعبّرتين كانت تحيط بهما تجاعيد رقيقة. وكانت لها ضحكة أشبه بضحكة الأطفال.

التفتت إلى كوان فسألته قائلة: هل فعلت كما أمرتك؟ هل تخلّصت من ذلك البيانو الإنكليزي البشع؟

فأجاب كوان وهو يشير إلى بيانو في ركن الغرفة قائلاً: نعم، وقد أحضرت هذا بدلاً منه.

أسرعت البريمادونا إلى البيانو ورفعت غطاءه ثم هتفت قائلة: يا إلهي، من طراز إيرارد؟ نعم، هذا أفضل. سأجرّبه.

ثم ارتفع صوتها الساحر الجميل بنغمات مختلفة عالية، ولكنها ما لبثت أن خفت صوتها وهي تقول بحماسة ساذجة: ما أجمل صوتي حتى في لندن!

فأسرع كوان يقول: هذه هي الحقيقة، وسوف تحظَين بإعجاب لندن كلّها مثلها مثل نيويورك.

- هل تظن ذلك؟

وإذا نظرنا إلى الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على

شفتيها عرفنا أن ذلك السؤال كان شكلياً فقط. وقال كوان: بالطبع، فهذه هي الحقيقة.

ابتعدت بولا نازاركوف عن البيانو واقتربت من المكتب وهي تقول: والآن إلى العمل. ما هي الالتزامات التي ارتبطت بها؟

فأخرج كوان بعض الأوراق من حافظته (وكان قد وضعها فوق أحد المقاعد) ثم قال: لا جديد، ستغنّين في خمس حفلات في كوفنت غاردن، ثلاث منها في دور توسكا واثنتين في دور عايدة.

- تباً لعايدة هذه! إنها لا تروقني، أما توسكا فشيء آخر.

- أجل، إنك رائعة في دور توسكا.

- بل أنا أعظم توسكا في العالم.

- لا يوجد من يضارعك مطلقاً.

- هل يقوم روسكاري بدور سكاربيا؟

- نعم، ويقوم ليبي بدور إميل.

فصاحت البريمادونا قائلة: ماذا؟! ليبي؟ ذلك الضفدع البشع؟ لن أغنّي معه وإلا فسوف أعضّه وأخدشه.

فقال كوان بتسامح: رويدك، اهدئي.

- إن ذلك الرجل لا يغنّي، إنه يعوي.

- سوف نرى.

كان معتاداً على ذلك. ثم سألته البريمادونا قائلة: ومن سيقوم بدور كافاردوس؟

- الفنان الأمريكي هنسديل.

- إنه فتى لا بأس به، كما أنه يجيد الغناء.

- وسيحلّ بارير محلّه ذات مساء.

فقالت بكرم كبير: إن بارير فنان كبير، ولكن ليبي... إنني لا أريده، لن أغنّي معه.

- دعي الأمر لي.

وسعل برفق ثم تناول ورقة أخرى وقال: وأنا الآن بصدد تدبير حفلة خاصة بقاعة ألبرت.

وعندما قطبت بولا نازاركوف حاجبَيها أسرع يقول: أنا أعلم، ولكن هذه هي العادة.

فقالت بولا: ستكون الحفلات كاملة العدد على كل حال، وسيكون نصيبي من الإيراد كبيراً.

فاستطرد كوان قائلاً: وهذا شيء جديد خاص. إنه عرض من السيدة راستنبوري، وهي تريدك أن تُحْيي حفلة في قصرها.

- راستنبوري؟

وقطّبت حاجبَيها وبدا أنها تحاول أن تتذكر ثم قالت:

لقد قرأت هذا الاسم في مكان ما منذ وقت طويل، وأعتقد أنه اسم مدينة أو قرية.

- بل هو اسم بلدة كبيرة، والقصر نفسه قديم جداً وإقطاعي بكل ما في هذه الكلمة من معنى، بأشباحه ولوحاته وسراديبه السرّية، وهو يضمّ قاعة مسرح كبيرة، وتريد السيدة راستنبوري إحياء حفلة خاصة تعرض فيها أوبرا بترفلاي.

- بترفلاي؟

- وهي على استعداد لأن تدفع لك ما تريدين، ولكن يجب تدبير الأمر مع كوفنت غاردن طبعاً. ستتقاضين مبلغاً خيالياً وسيكون في هذا دعاية طيّبة لك.

فقالت بازدراء كبير: دعاية؟ لي أنا؟

فأجاب كوان قائلاً: الزيادة لا تضرّ.

فتمتمت بولا قائلة: راستنبوري... أين قرأت هذا الاسم؟

ثم أسرعت إلى المكتب فتناولت مجلة راحت تقلّب صفحاتها، ثم توقفت فجأة، وبعد صمت طويل ألقت بالمجلة على المكتب ثم عادت ببطء وجلست. كان كل شيء قد تغيّر، ونمّ وجهها عن تعبير صارم قاس ثم قالت: عليك أن تدبّر ذلك. سأغنّي، ولكنني لن أغنّي إلا توسكا ولن أقوم بأي دور آخر.

فتمتم كوان قائلاً: سيكون ذلك عسيراً؛ فمن الصعب نقل مناظر وتصميمات توسكا إلى مسرح خاص.

- قلت توسكا فقط ولا شيء آخر.

بدا الاقتناع على كوان فجأة، ثم نهض وهو يقول: حسناً، سأدبّر ذلك.

وكانت قد نهضت هي الأخرى، وقد بدا أنها تريد تبرير قرارها لأنها قالت: إنه دوري الكبير يا كوان، لم يضارعني فيه أحد قطّ.

- أجل، لا بأس، ولكن غيرتزا قد حققت فيه نجاحاً كبيراً في العام الماضي.

فصاحت وقد احمرّ وجهها سخطاً تقول: غيرتزا؟!

وصارحته برأيها فيها، ولكن كوان كان يعرف طباعها فلم يُصغ إليها ثم قال: كل هذا لا يمنع أنها فنانة موهوبة قوية في فَنها.

- أنا أفضل منها بكثير، ولا يوجد من يضارعني في هذا المجال. إنني أكيّف صوتي كما أريد وكما يقتضيه الدور الذي أقوم به، أكيّف صوتي فأجعله يبدو كصوت طفل في المسرح أو كصوت عاديّ ليس فيه أي انفعال... لقد علمتني الراهبات كيف أفعل ذلك.

وقال كوان وقد أخذه التأثّر: أعرف ذلك، إنك عظيمة.

- إن الفنان يجب أن يدفع الثمن فيتألم ويحتمل كل شيء كي يكتسب القدرة على الرجوع إلى الخلف واستعادة الجمال الضائع في قلب طفل.

رماها كون بنظرة غريبة فرأى في عينيها وميضاً غريباً جعله يرتجف، ثم تمتمت ببضع كلمات سمعها بالكاد حيث كانت تقول: أخيراً، بعد كل هذه السنين.

* * *

-٢-

عرفت السيدة راستنبوري كيف تجمع بين الطموح وحب الفن بكل نجاح، ولم يكن زوجها مثلها في هاتين النقطتين فتركها تفعل ما يحلو لها. كان رجلاً أحمر الوجه لا يكترث بشيء في الدنيا فيما عدا جياده، وقد سرّه أن يكون من الثراء بحيث يتمكّن من تلبية رغبات زوجته ونزواتها. وكانت قاعة المسرح بالقصر قد بُنيت في عهد جدّه ثم أصبحت الهواية الخاصة للسيدة راستنبوري، وقد عرضت فيها إحدى المسرحيات الاجتماعية ومسرحية أخرى هزلية تدور أحداثها في كوبا، وقد دعت السيدة راستنبوري النخبة الممتازة من الطبقة الراقية الإنكليزية لمشاهدة أوبرا توسكا بعد أن أقامت لها دعاية كبيرة.

كانت البريمادونا نازاركوف وفرقتها قد أقبلوا قُبيل الغداء وتمّ الاتفاق على أن يقوم الفنان الأمريكي هنسديل بدور كافاردوس. أما روسكاري، الفنان الإيطالي المشهور، فقد اتفق على أن يقوم بدور سكاربيا. وكانت النفقات باهظة ولكن أحداً لم يعبأ بذلك، وكانت بولا نازاركوف في تلك الليلة معتدلة المزاج بادية السعادة، وقد دهش كوان لذلك وتمنى لو يستمرّ الحال على هذا المنوال.

وعندما فرغ القوم من تناول الغداء انتقلوا إلى المسرح لتفقّد المناظر والتصميمات، وكان قائد فريق العزف هو صامويل ويدج، وهو قائد قدير، ولكن الغريب أن السيد كوان لم يشعر بأيّ ارتياح إزاء ذلك؛ فقد كان كل شيء يبدو على ما يرام أكثر من اللازم. وقال يحدّث نفسه: ليت ذلك يدوم، إن وجه نازاركوف لا يبشّر بالخير.

كانت تجربته الطويلة في دنيا المسرح قد أورثته حاسّة سادسة لا تخطَئ.

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم أسرعت إليه إليز الخادمة الفرنسية وصاحت به قائلة: سيد كوان، أرجو أن تأتي معي حالاً.

فسألها كوان بانزعاج قائلاً: ما الأمر؟ هل قامت السيدة نازاركوف بإحدى نزواتها؟ لقد كنت أتوقّع ذلك.

- لا، لا يا سيدي، لم يصدر شيء من سيدتي، وإنما هو السيد روسكاري. إنه مريض، إنه يُحتضر.

- ماذا؟! لا شك أنك تبالغين، خذيني إليه.

سار خلف الخادمة التي كانت ترتجف خوفاً، ولكنه وجد الإيطالي الصغير يتلوى في فراشه من الألم بحركات أكثر ما كانت تثيره هو الشعور بالرغبة في الضحك. وكانت بولا نازاركوف منحنية فوقه، ثم استقبلت كوان أسوأ استقبال إذ بادرته قائلة: ها أنت أخيراً، إنها غلطتك أنت.

إن روسكاري المسكين يتألّم كثيراً، ولا ريب أنه تناول طعاماً فاسداً.

تأوّه المريض قائلاً: سأموت. آه، يا لهذه الآلام! إنها بشعة.

وتلوّى في فراشه ويداه على بطنه، فقال كوان: نريد طبيباً، لا بدّ من طبيب.

ولكن بولا أوقفته بحركة من يدها قائلة: إنه في الطريق وسيبذل قصارى جهده لتهدئة آلام صديقنا المسكين بلا شك، ولكنه لن يستطيع الغناء هذه الليلة.

تأوّه الإيطالي قائلاً: لن أستطيع الغناء لا الليلة ولا أية ليلة أخرى... إنني أموت.

فقالت بولا: لا، إنك تشكو من عُسر هضم لا غير، ولكنك لن تستطيع أن تقوم بدورك على خشبة المسرح على أية حال.

- لقد دسّ أحدهم لي السمّ.

فقالت بولا: بل أنت تشكو من مغص في معدتك فقط. ابقَي بجواره يا إليز إلى أن يأتي الطبيب.

ثم أخذت كوان إلى الخارج فسألته قائلة: ماذا سنفعل؟

فلم يُجِب كوان. كان الوقت لا يسمح بأن يبعثا بطلب مطرب آخر من لندن كي يحلّ محلّ روسكاري. وعلمت

السيدة راستبورن بمرض روسكاري فأسرعت إليه، ومثلها مثل بولا نازاركوف لم تفكّر إلا في نجاح حفلها.

تأوّهت نازاركوف قائلة: ليس أمامنا من يحلّ محله.

ولكن السيدة راستبورن صاحت فجأة قائلة: آه، لقد تذكرت، إن بريون هنا.

- بريون؟

- نعم، إدوارد بريون، وأظنك تعرفينه جيداً. إنه ذلك الفنان الفرنسي المشهور، وهو يقيم بجوارنا. لقد نشرت مجلة «كنتري هاوس» صورة لبيته في العدد الذي صدر هذا الأسبوع. إنه الرجل الذي نحتاج إليه.

فصاحت بولا نازاركوف بذهول قائلة: بريون في دور سكاربيا! إنني أتذكّره جيداً، وهو أحسن من قام بهذا الدور. لكنه... لكنه اعتزل الغناء!

فقالت السيدة راستنبوري: سأُخرجه أنا من عزلته، اعتمدي عليّ.

وما هي إلا عشر دقائق حتى كانت قد اقتحمت القصر الذي يعتزل فيه بريون، فإن السيدة راستنبوري كانت إذا عقدت النية على أمر ما لا يمكن أن يصرفها عنه أي شيء. وقد أدرك بريون على الفور أنه لا بدّ له من الرضوخ لإرادتها، كما أنه يوجد أمر لا بدّ من الاعتراف به، وهو أنه كان شديد الميل إلى النبيلات صاحبات الألقاب الرنّانة، إذ

كان هو نفسه من أصل متواضع وقد صعد السلّم الاجتماعي درجة درجة وأحسّ بسعادة كبيرة لمخالطة النبلاء، ولكن عزلته في مثل ذلك المكان المفقود في قلب إنكلترا خيّبت آماله بعض الشيء. صحيح أنه لم يكن يفتقر إلى تصفيق الجمهور وإعجابه به، ولكن حزّ في نفسه أن الريفيين لم يقدّروه حق قدره، وقد جاء عرض السيدة راستنبوري كالبلسم لقلبه الحزين.

قال مبتسماً: سأبذل كل جهدي، إنني لم أُغَنِّ أمام الجمهور منذ وقت طويل، وكذلك لم أتدرّب، ولكن في هذه الحالة بالذات وإزاء مرض السيد روسكاري المؤسف...

فقالت السيدة راستنبوري: إنها ضربة قاسية.

فقال بريون: إنه ليس بالمطرب الموهوب حقاً على أي حال.

وقضى بضع لحظات يحاول أن يبرهن لها على ما يقول وعلى أنه لم يصعد خشبة المسرح مغنّ قدير غيره منذ اعتزاله الفن، فقالت السيدة راستنبوري: ستقوم السيدة نازاركوف بدور توسكا. لا شك أنك تعرفها.

فأجاب بريون قائلاً: لا أعرفها شخصياً، ولكنني سمعتها تغني في نيويورك. إنها فنانة كبيرة وتعرف معنى الفن.

وأحسّت السيدة راستنبوري بالارتياح. لم تكن تعرف

ماذا تفعل مع هؤلاء الفنانين، فقد كان يسود بينهم جوّ غريب من العداء والغيرة. وبعد عشرين دقيقة عادت إلى القصر وهي تهزّ يدها بزهو وانتصار ثم قالت ضاحكة: سيأتي. لقد كان السيد بريون رقيقاً جداً ولن أنسى له هذا أبداً.

* * *

أسرع الجميع حول الفرنسي، وعلى الرغم من أنه كان في الستين من عمره إلا أنه كان لا يزال وسيماً أنيقاً طويل القامة له شخصية جذابة.

قالت السيدة راستنبوري: ولكن أين السيدة نازاركوف؟ آه، ها هي.

لم تكن بولا نازاركوف قد اشتركت في تحية الفرنسي، بل بقيت جالسة في مكانها بهدوء في ظلّ الموقد الذي لم تكن فيه أية نار. فقد كان الجو حارّاً، وكانت تخفف من شدة الحرّ باستخدام مروحة في يدها، وكانت متحفّظة متعالية حتى إن السيدة راستنبوري خشيت أن يكون قد وقع ما أساءها أو كدّرها.

قادت السيدة راستنبوري السيد بريون إلى الفنانة وهي تقول: سيد بريون، قلت لي إنك لم يسبق أن التقيت بالسيدة نازاركوف.

قال بريون: نحن لم تشترك في الغناء قبل اليوم يا سيدتي، ولكن القدر كان كريماً معي اليوم.

فضحكت بولا برقة وقالت: أنت كريم جداً يا سيد بريون. لقد جلست عند قدميك وأنا لا أزال مغنّية صغيرة مغمورة. أنت رائع في دور ريجوليتو، إنه دور كله فنّ ولا يمكن لأحد أن يضارعك فيه أبداً.

فقال بريون وهو يتنهّد: للأسف، إن أيامي قد انتهت. سكاربيا، ريجوليتو، راداميس، شاربلس... طالما غنيت هذه الأدوار، أما الآن فلا شيء على الإطلاق.

- ولكنك ستغني الليلة.

- أجل، هذا صحيح يا سيدتي. لقد نسيت، الليلة.

فقالت نازاركوف بعجرفة: لقد غنّيت في توسكا مع كثيرات غيري، ولكنك لم تُغَنِّ معي قطّ.

فانحنى الفرنسي برقة قائلاً: سيكون هذا أكبر شرف لي، إنه دور كبير يا سيدتي.

فقالت السيدة راستنبوري: إنه دور لا يتطلب مغنية فحسب، بل يتطلب ممثلة قديرة أيضاً.

وأيّدها بريون قائلاً: هذا صحيح. أذكر أنني حين كنت شاباً دخلت مسرحاً في ميلانو في إيطاليا مصادفة، وقد كلّفني مقعدي ليرتَين فقط، ولكنني سمعت في تلك الليلة مغنّية قديرة كما لو كنت في مسرح متروبوليتان في نيويورك. كانت الفتاة صغيرة. لن أنسى صوتها أبداً وهي تغني فيسي دارتي... لقد كان صوتها نقياً واضحاً وإن كان ينقصه القوة.

- إن القوة تأتي فيما بعد.

- هذا صحيح. لقد كانت الفتاة الصغيرة تُدعى بيانكا كابيللي، وقد اهتممت أنا نفسي بمستقبلها، وبفضلي أنا شقّت طريقها وحصلت على عقود كبيرة، ولكنها كانت من الحماقة بكل أسف...

ثم صمت، فتكلّمت بلانش آمري ابنة السيدة راستنبوري، وهي فتاة في الرابعة والعشرين من العمر هيفاء القامة ذات عينين زرقاوين واسعتين، وسألته قائلة: وكيف ذلك؟

فأجابها الفرنسي بلهجة مهذبة قائلاً: مما يؤسَف له أنها ورّطت نفسها مع شخص حقير وضيع من الأشقياء وقع في مشكلات مع رجال الشرطة فصدر عليه حكم بالإعدام، فجاءتني بيانكا وطلبت مني أن أتدخّل لكي أنقذه.

فحدقت بلانش آمري فيه ثم قالت باهتمام: وهل فعلت؟

- أنا يا آنسة؟ وكيف أستطيع وأنا أجنبيّ عن البلد؟

فقالت نازاركوف بصوت خافت ينبض بالحياة: ألم يكن لك نفوذ؟

- وحتى لو كنت على شيء من النفوذ ما كنت لأستخدمه بكل تأكيد لأن الرجل لم يكن يستحقّ ذلك، أما الفتاة فقد بذلت لها كل ما استطعت.

وابتسم، فخُيّل إلى الفتاة الإنكليزية وهي ترى ابتسامته تلك أنها بغيضة بشكل غريب، وعندئذ أحسّت بأن ابتسامته تخفي حقيقة شعوره. وقالت نازاركوف: تقول إنك بذلت كل ما استطعت، وقد كان هذا كرماً منك، فهل شكرَتك؟

فأجابها قائلاً: لقد أُعدم الرجل، أما الفتاة فقد دخلت الدير، وبهذا فقد العالَم مطربة قديرة.

فضحكت نازاركوف ضحكة قصيرة وقالت: أما نحن معشر الروس فقوم متقلّبون جداً.

وتصادف أن بلانش آمري كانت تنظر إلى كوان في تلك اللحظة بالذات، فرأت نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهه ورأت شفتيه تفترقان كما لو كان يهمّ بالكلام، ولكنه لم يلبث أن أطبقهما من جديد على أثر إشارة من بولا.

في تلك اللحظة ظهر رئيس الخدم فقالت السيدة راستنبوري وهي تنهض: العشاء. يا لكم من مساكين يا معشر المطربين! إنني أرثى لكم لأنكم تحرمون أنفسكم من الأكل قبل الغناء، وهذا شيء فظيع! ولكن يوجد عشاء طيّب ينتظركم بعد ذلك.

فقالت بولا نازاركوف: نرجو ذلك.

ثم أردفت وهي تضحك برفق قائلة: فيما بعد.

* * *

-٣-

في المسرح كان الفصل الأول من استعراض توسكا قد انتهى وانبهر الحاضرون وراحوا يتبادلون الحديث. كان النبلاء يجلسون على ثلاثة مقاعد في الصف الأول، وكانوا ذوي أخلاق رقيقة حيث دار الحديث بينهم بهمس ورقّة. وقد أجمع الجميع على أن نازاركوف حافظت على مستواها في الفصل الأول، ولكن الغالبية الكبيرة من المستمعين لم يدركوا أن المغنية قد أظهرت فنها وتفوّقت على نفسها وجعلت من توسكا فتاة خفيفة طائشة لعوباً تلعب بالحبّ وتُظهر غيرتها وتطلب الكثير.

أما بريون فعلى الرغم من أن صوته لم يعُد مثلما كان إلا أنه قام بدور سكاربيا الساخر على أروع ما يكون، ولم يُظهر أية لمحة من المكر أو الخبث في تصويره لسكاربيا، فقد جعل منه شاباً رقيقاً فيه لمسة بسيطة من الحقد الذي يكمن في الظاهر، كما أظهر بريون مقدرة كبيرة في المشهد الأخير وهو واقف مع صوت الأرغن يراجع خطته لإنقاذ توسكا.

بعد ذلك بدأ الفصل الثاني، وكان المشهد في بيت

سكاربيا نفسه، وفي تلك المرة ما إن دخلت توسكا حتى أظهرت نازاركوف كل موهبتها على الفور. كانت امرأة مذعورة تقوم بمقدرة تدلّ على تفوقها في التمثيل والغناء معاً، وكانت تحيّتها لسكاربيا وعدم اكتراثها وردودها الباسمة طبيعية جداً. وقد أحسنت بولا نازاركوف في هذا المشهد استخدام عينيها خير استخدام، وقامت بدورها بهدوء كبير ووجه باسم جامد، ثم راحت عيناها ترميان سكاربيا بنظرات حادة تنمّ عن إحساسها ومشاعرها الحقيقة.

وهكذا مضت القصة إلى أن جاء مشهد العذاب وانهيار توسكا واستسلامها الأخير عندما سقطت عند قدمَي سكاربيا تطلب منه العفو بلا طائل، فاهتزّت مشاعر اللورد ليكونمير الكهل، وهو ذوّاقة كبير للموسيقى، وتمتم سفير أجنبي يجلس بجواره قائلاً له: لقد أبدعت نازاركوف الليلة. لا توجد امرأة أخرى يمكن أن تقوم بهذا الدور على المسرح كما قامت به الآن.

فهزّ ليكونمير رأسه موافقاً. وذكر سكاربيا ثمنه فريعت توسكا وهرعت إلى النافذة، وارتفعت دقات الطبول من بعيد، ثم ألقت توسكا بنفسها بإعياء عندما وقف سكاربيا بجوارها يذكر لها كيف أن قومه يَنصِبون المشنقة لها... ثم صمت. ومن جديد ترتفع دقات الطبول وترقد نازاركوف على الأريكة وقد تدلى رأسها إلى أسفل يكاد يلمس الأرض والشعر يغطيه، ثم ظهر التناقض الكبير بين الحبّ والألم طوال الدقائق العشرين الأخيرة، وارتفع صوتها واضحاً

جلياً وهي تغنّي مأساتها بصوت رائع أخّاذ ساحر النغمات، ثم ختمت غناءها وراحت تتوسّل حتى اللحظة التي دخل فيها سبوليتا، وعندئذ ترضخ توسكا للأمر الواقع بإعياء، فينطق سكاربيا بكلماته ذات المعنى المزدوج، وينصرف سبوليتا مرة أخرى. ثم تأتي اللحظة الحاسمة حين ترفع توسكا كأساً في يدها المرتعشة وترى الخنجر على المائدة فتخفيه خلف ظهرها، وينهض بريون ساخراً ويشتعل حباً وهياماً فيقول: "توسكا، أخيراً أصبحت لي"، وفي نفس اللحظة يُغرَس الخنجر وتوسكا تردّد كلمات الانتقام قائلة: هكذا تحبّ توسكا.

لم يسبق أن أظهرت نازاركوف مثل هذا الإبداع في تمثيل دور الانتقام. وترددت الكلمات الأخيرة التي نطقت بها بصوت هادئ في أركان المسرح قائلة: "إنني أصفح عنه الآن"! ثم بدأ نشيد الموت وتوسكا تقوم بالطقوس فتضع الشموع على جانبَي رأسه، ثم تقف وقفتها الأخيرة بالباب وهي تلقي عليه نظرة مع دقات الطبول البعيدة وهبوط الستار.

في تلك المرة دوّى التصفيق بين الحاضرين، ولكن الهتاف كان قصير الأمد؛ فقد أقبل بعضهم مسرعاً وأسرّ شيئاً في أذن اللورد راستنبوري، فنهض واقفاً واستأذن مَن حوله ثم غادر مكانه، ولكنه عاد بعد فترة قصيرة وطلب من السيد دونالد كالتروب، وهو طبيب مشهور، أن يتبعه. وسرى الأمر بين الحاضرين على الفور، فقد وقعت حادثة

وأُصيب شخص بجُرح بالغ.

ثم ظهر أحد الممثلين أمام الستار وقال إن السيد بريون أُصيب بحادثة مؤسفة وإن الاستعراض لا يمكن أن يستمرّ. ومرة أخرى عرف الجميع أن بريون أُصيب بطعنة قاتلة وأن نازاركوف فقدت رشدها إلى حدّ أنها عاشت الدور الذي مثّلته فطعنت زميلها في الغناء.

وبينما كان اللورد ليكونمير يتحدث مع صديقه السفير أحسّ بلمسة فوق ذراعه، فتحوّل ليرى بلانش آمري التي أسرعت تقول: إنها لم تكن حادثة، أستطيع أن أؤكّد لك أنها لم تكن حادثة. ألم تسمع قبل العشاء تلك القصة التي رواها لنا عن تلك الفتاة الإيطالية؟ إن تلك الفتاة هي بولا نازاركوف نفسها، وهي ما كادت تقول إنها روسية حتى رأيت الدهشة على وجه السيد كوان، فقد كان يعلم أنها إيطالية وأنها اتخذت اسماً روسياً.

قال اللورد ليكونمير: ماذا يا عزيزتي بلانش؟!

- أقول لك إنني واثقة من ذلك. إن في حجرتها مجلة مصوّرة مفتوحة عند الصفحة التي فيها صورة السيد بريون في بيته الريفي، لقد كانت تعرف ذلك قبل أن تأتي هنا. وإنني أعتقد أنها أعطت ذلك الرجل الإيطالي المسكين شيئاً أصابه بالمرض.

فصاح اللورد ليكونمير قائلاً: ولكن لماذا؟ لماذا؟!

- ألا تعرف؟ إنها قصة توسكا مرة أخرى. لقد كان

يحبّها في إيطاليا ولكنها كانت مخلصة لخطيبها، وقد ذهبت تتوسل إليه لكي ينقذ ذلك الخطيب فوعدها أنه سيفعل، ثم تخلى عنها وترك خطيبها يُعدَم. لقد انتقمت منه هذه الليلة بعد كل تلك المدّة. هل سمعتها وهي تغني "أنا توسكا..."؟ لقد رأيت انطباعات وجه بريون عندما قالت ذلك لأنه عرفها. نعم، عرفها.

* * *

وقفت بولا نازاركوف في غرفتها لا تتحرّك وقد ألقت حول كتفيها معطفاً من الفراء، ثم طُرق الباب فقالت: ادخل.

دخلت إليز وكانت تبكي قائلة: سيدتي، لقد مات. إنه...

- ماذا؟

- سيدتي، كيف أستطيع أن أقول لك؟! يوجد رجلان من رجال الشرطة يريدان التحدّث إليك.

نهضت بولا نازاركوف واقفة وقالت بهدوء: سأمضي إليهما.

ثم فكّت عقد اللؤلؤ من حول عنقها ووضعته في يدَي الفتاة الفرنسية قائلة: هذا العقد لك يا إليز. لقد كنت فتاة طيّبة، ولن أحتاج إليه في المكان الذي سأمضي إليه. هل تفهمين يا إليز؟ لن أغني توسكا مرّة ثانية.

ثم وقفت لحظة بجوار الباب وعيناها تدوران في الغرفة كما لو كانت تنظر للمرة الأخيرة إلى الأعوام الثلاثين التي قضتها في مهنتها، ثم تمتمت بين شفتيها بآخر كلمتين من أوبرا توسكا قائلة: "انتهت المهزلة"!

* * *

المحتويات

ذات الشعر الذهبي ٥
ميراث الجنون ٢٧
الأفعى ذات الرؤوس السبعة ٦١
مغامرة في الأعالي ٩٣
الكلب الضائع ١١٧
مغنية الأوبرا ١٤٩